عمر لطفي النجار

التوكل وفلسفة التسول

في التصوف

بسم الله الرحمن الرحيم

ـ المقدمة:

التوكل فضيلة إسلامية هامة، فبعد تحري الأسباب والأخذ بها يكون التوكل "إعقل وتوكل"، وإلا فهو التواكل، فالإنسان مأمور باستخدام عقله للبحث عن الأسباب أو لاتخاذها "فاتبع سببا".

إن أهل الله أهل التصوف، لهم شأن آخر، فالعقل لديهم في أحط الدرجات، ولا حقيقة معرفية لديهم إلا عن طريق الكشف أو العيان وإلى ما هنالك وبه كان تحررهم من العقل المقرون بالأسباب، وبهذا أيضاً كان لهم الفصل بين الأسباب والتوكل، حتى أصبح التوكل على معنى خاص بهم دون غيرهم.

التوكل والأسباب في التصوف لا يلتقيان، فبعد التخلص من العقل، يكون حضور عقائدهم أو مبادئهم لتحديد معناه، فمن توحيد الأفعال الذي معناه الجبر المطلق، يصبح التوكل على معنى الاستسلام المطلق، إلى حد المساواة بين الحركة والسكون، انتظاراً لفعل الله لا غير، وبناء عليه آثروا انتظار الفتوح والتسول على السعي لتحصيل الرزق بالأسباب، وصولاً للزهد في كل ما سوى الله.

الصوفي كسول يكره العمل، بل هو تاجر أحلام وصياد مصائب، آثر العيش على إحسان المحسنين وكد المريدين وتعبهم، طمعاً منهم بما أغراهم به ابتداء من الوصول وجريان الكرامات والخوارق بين أيديهم،

انتهاءً بالكشف وعلم الغيب وإلى ما هنالك. حتى مخاوف السذج والبسطاء لا نجاة لها من أحابيله، حتى جعلهم على الاعتقاد بقدرته أو قبره على غفران الذنوب وشفاء المرضى ورد الضالة حتى كانت النذور والأجور والهبات، التي لا تقارن ثمارها بالعمل إن قام به.

الموارد الاقتصادية للصوفي كثيرة جداً: الفتوح، الصدقات، الإحسان، التسول، النذور، المريدين، السذج والعوام، الزكاة، قبور الأولياء الموتى، السلاطين وأرباب المال والتجارة وغير ذلك كثير.

أما عن فلسفته للتسول فلها شجون ومتون، فمن توحيد الأفعال أنكر أفضلية المعطي على المستجدي، فالمعطي مجبر على العطاء، وبتوحيد الوجود، كان له المساواة بين الله والمعطي حيث هو اسم من أسمائه سبحانه، وليس إلا بعض الله قد تصدق على بعضه الآخر!! ولا فضل بعدها بالمعنى المعهود للمعطي على المتسول، وبتوحيد لا معبود إلا الله الذي فيه المساواة على الصواب بين العقائد والأديان، أباح لنفسه التسول من كل البشر مهما تكن عقائدهم، وبالوقاحة والخسة، حتى تكون يد المتسول هي العليا طالب المعطي بسط يده وعليها صدقته ليتناولها هو من أعلى، ويده عندها هي العليا، وكل الفضل للآخذ الذي هو السبب فيما يناله المعطي من أجر عند الله.

ومن أجل التعرف على الموارد الاقتصادية وطبيعتها عند الذين زعموا التوكل المطلق كان هذا الكتاب.

ـ التوكل والأسباب:

التوكل والأخذ بالأسباب لا يلتقيان في التصوف، وقد قال أحدهم: "ليس من الملة من قال بالعلة"، والنابلسي يقول: "فلا تتفرغ لدعوى إيجاد أمر أو الامتناع من أمر"[١]، أما الشيخ علي بن علوان الحموي فيقول: "فأرح نفسك أيها الأخ من التدبير فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك"[٢]، ومن أجل التجرد وإسقاط التدبير قام ابن عطاء السكندري بترتيب البراهين الداعية له وكأن كل همه نفي المستقبل عن كل معنى إنساني من جهة وتكريس التسول كأعلى قيمة يسعى إليها الإنسان من جهة أخرى.

فالتجرد، أي "الانقطاع إلى الله بالكلية"[٣] لن يكون للصوفي إلا في إسقاط التدبير، حيث لا حرفة ولا عمل ولا سعي لرزق أو سواه، ولا سعي لبناء ثغور ومحاربة الأعداء وتجهيز جيوش وغير ذلك، فالتصوف والأسباب لا يجتمعان.

فالتدبير واتخاذ الأسباب وفق ابن عطاء في رسالته "التنوير في إسقاط التدبير" إنكار لتدبير الله وجهل به وبحقيقة الأمور وتكذيب لصفاته

---

١ ـ ص٩٧ شروح رسالة الشيخ أرسلان
٢ ـ ص٢٣٤ نفسه
٣ ـ ص١٢٦ ج٢ التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق

تعالى وسوء أدب معه وطعن في القضاء والقدر، حتى كاد الكفر برأيه أن يكون سمة لأصحاب التدبير.

الناس كما يقول المتصوفة مراتب، والتوكل المقرون بالعلل لا يصلح إلا لأهل البدايات، أما الواصلون أو العبيد الخلَّص فشأنهم مختلف حيث لا إرادة لهم على الإطلاق، والتوكل عندها يعني قطع الأسباب بالكلية بما فيها التوكل نفسه، والتستري بعد قوله: "أن التوكل هو قطع الأسباب والأنس بالله واليأس مما سواه"[1]، قال: "التوكل نسيان التوكل"[2]، وقد قيل – أيضاً – لأبي يزيد "بما وصلت؟ فقال: جمعت أسباب الدنيا فربطتها بحبل القناعة ووضعتها بمنجنيق الصدق ورميت بها في بحر اليأس فاسترحت"[3]. وبهذا المعنى للتوكل يصبح التوكل على الضد من فضيلة الدعاء التي قد تكون سبباً من الأسباب، وقال "أحمد بن عيسى الخراز، كنت في البادية فنالني جوع شديد فغلبتني نفسي أن أسأل الله تعالى طعاماً، فقلت: ليس هذا من أفعال المتوكلين، فطالبتني أن أسأل الله صبراً، فلما هممت بذلك سمعت هاتفاً يهتف بي ويقول:

"ويزعم أنه منا قريب   وأنا لا نضيع من أتانا
ويسألنا على الإقتار جهداً   كأنا لا نراه ولا يرانا "[4]

---

[1] - ص١٧٠ – ١٧١ من التراث الصوفي
[2] - ص١٧٧ نفسه
[3] - ص٧٥ الرسالة القشيرية
[4] - ص٢٧٤ – ٢٧٥ ج٤ إحياء علوم الدين

والتوكل برأي "الخوَّاص" على العكس من سنة الصحبة في السفر، حتى لو كان الخضر صاحبه، فقد "سئل عن أعجب ما رآه في أسفاره. فقال: رأيت الخضر ورضي بصحبتي ولكني فارقته خيفة أن تسكن نفسي إليه فيكون نقصاً في توكلي"[١]، ومن التوكل الصوفي عدم الحذر من أي ضرر، فالدينوري يفتخر بأنه حج اثنا عشر حجة على التوكل، أي حاسر الرأس حافي القدمين"[٢]. وقصة حمزة الخرساني غريبة في نقاش التوكل الذي يجب برأيه أن يتجرد عن كل سبب ممكن بما فيه الاستغاثة بالله، "قال أبو حمزة الخرساني: حججت سنة من السنين فبينا أنا أمشي في الطريق إذ وقعت في بئر فنازعتني نفسي أن أستغيث فقلت: لا والله لا أستغيث، فما استممت هذا الخاطر حتى مرَّ برأس البئر رجلان، فقال أحدهما للآخر: تعال حتى نسد رأس هذا البئر لئلا يقع فيه أحد، فأتوا بقصب وبارية وطموا رأس البئر فهممت أن أصيح، فقلت في نفسي: إلى من أصيح، هو أقرب منهما، وسكنت. فبينا أنا بعد ساعة إذ أنا بشيء جاء وكشف عن رأس البئر وأدلى رجله وكأنه يقول: تعلق بي في همهمة له كنت أعرف ذلك، فتعلقت به فأجَّني، فإذا هو سبع، فمرَّ. وهتف بي هاتف:

---

[١] - ص١٦٩ ج٤ نفسه

[٢] - ص٣٠٧ تلبيس إبليس

يا أبا حمزة أليس هذا أحسن، نجيناك من التلف بالتلف"[1]. أي: نجاه من الهلاك بالسبع المهلك انتصاراً لإيمانه بالتوكل المطلق.

أما الشيخ محمد السمين فقد دفعه توكله إلى مجاورة السباع والنوم بينهم"[2]، إلا أن الشيخ النخشبي لم ينج منهم "فلقيته السباع البرية فنهشته فمات"[3]. والعباس المدني ربما أراد بتوكله البرهنة على أنه الأعظم شأناً من موسى عليه السلام الذي هرب من الحية، فقد رُوي أن حية طوقت عنقه فلم يلتفت لها، بل راح يغط في نومه كأن شيئاً لم يكن"[4]، وهكذا كانت نجاته!

وقصة النساج تقول: "سمي خيراً النساج، لأنه خرج إلى الحج فأخذه رجل على باب الكوفة، فقال: أنت عبدي، واسمك خير، وكان أسوداً، فلم يخالفه، فأخذه الرجل واستعمله في نسج الخز سنين"[5] دونما اعتراض منه لأن الاعتراض وتوحيد لا فاعل إلا الله لا يلتقيان.

---

[1] - ص٢٧٢ ج٢ إحياء علوم الدين
[2] - ص٣٠٥ تلبيس إبليس
[3] - ص٣٠٦ نفسه
[4] - ص٩٤ سير الأولياء
[5] - ص٣٢٢ طبقات الصوفية

ـ التوكل وعلاج الأمراض:

علاج الأمراض أو التداوي من الأسباب المزيلة لمعنى التوكل برأي الصوفي الواصل. فالشيخ أبو بكر الدقاق ترك عينه مع القروح والأوساخ حتى عميت، وفي ظنه أنه على التوكل"[1]، والغزالي يدافع عن هكذا سلوك بقوله: إن الذين تداووا من السلف لا ينحصرون ولكن قد ترك التداوي أيضاً جماعة من الأكابر"[2]، وسهل التستري برأيه واحد من هؤلاء الأكابر وإن لم يكن صحابياً، فقد "قيل لسهل متى يصح للعبد التوكل؟ قال: إذا دخل عليه الضرر في جسمه والنقص في ماله فلم يلتفت إليه، شغلاً بحاله، وينظر إلى قيام الله تعالى عليه"[3]، وكان يقول: "ترك التداوي وإن ضعَّف عن الطاعات وقصَّر عن الفرائض أفضل من التداوي لأجل الطاعات"[4]، وانتصر الغزالي أخيراً لهذا الرأي واجتهد له حتى ذكر ستة براهين تثبت صحة عدم التداوي:

البرهان الأول: أن يكون العبد من المكاشفين، قد كوشف بأنه انتهى أجله وأن الدواء لا ينفعه.

السبب الثاني: أن يكون المريض مشغولاً بحاله. فينسيه ذلك ألم المرض.

---

[1] ـ ص٣٠٨ تلبيس إبليس
[2] ـ ص٢٨٦ ج٤ إحياء علوم الدين
[3] ـ ص٢٨٧ نفسه
[4] ـ ص٢٨٨ نفسه

السبب الثالث: أن تكون العلة مزمنة والدواء- موهوم النفع-.

السبب الرابع: أن يقصد العبد بترك التداوي استبقاء المرض لينال ثواب المرض-.

السبب الخامس: أن يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف منها عاجز عن تكفيرها، فيرى المرض إذا طال تكفيراً فيترك التداوي"[1].

"السبب السادس: أن يستشعر العبد في نفسه مبادي البطر والطغيان لطول مدة الصحة فيترك التداوي-."[2]، وإضافة إلى هذا المنطق الغريب نراه وقد أمر بكتمان المرض قائلاً: "اعلم أن كتمان المرض وإخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البر وهو من أعلى المقامات"[3]، فذكر المرض "شكاية، والشكوى من الله تعالى حرام"[4].

وماذا إن ذكرنا الغزالي بالرسول صلى الله عليه الذي تداوى وقد أمرنا باتخاذ الدواء تخلصاً من الأمراض؟ هنا سيصرخ بملء فيه قائلاً: لا، فإن للرسول شأناً خاصاً فليس لديه ذنوب يخاف على تكفيرها ولا هو ممن يقع في طغيان الصحة والعافية ولا هو بحاجة إلى ثواب الصبر"[5]. وبهذا يكون الاستغناء عن الطب وعلم الطب إن لم يكن من العلوم

---

[1] - ص٢٨٨ نفسه
[2] - ص٢٨٩ نفسه
[3] - ص٢٩٢ ج٤ نفسه
[4] - ص٢٩٣ نفسه
[5] - ص٢٩١ ج٤ نفسه

المنكرة، وإن كان ولا بد من وجود المشافي لعلاج المرضى، فيجب تعيين أحد المكاشفين لمعرفة أجل المريض قبل علاجه، أو لجعله على حال لا يشعر معه بالألم، والأفضل من ذلك كله، أن ينصح مرضاه بالصبر على آلامهم لينالوا الغفران والتخلص من البطر والطغيان، ومن وجد فيه خيراً لنفسه اعتذر عن استقباله!

ـ التوكل والسياحة:

السفر ركب، والمسافر وحده شيطان، والتزود للسفر سنة الأنبياء والعاقلين، فقد تزود موسى عليه السلام بالحوت، كما تزود أهل الكهف بالدراهم وكذلك تزود الرسول صلى الله عليه وسلم في خروجه إلى الغار، حتى أن محمد بن كثير الصنعاني يسمي اللامتزودين بأولاد الشياطين"[١]، "ولا خلاف بين الفقهاء أنه لا يجوز دخول البادية بغير زاد، وأن من فعل ذلك فمات بالجوع فإنه عاص لله مستحق لدخول النار"[٢].

إلا أن السياحة من الرياضات الضرورية للصوفي، والتوكل كما يزعم سيكفيه مؤونة الدفاع عن نفسه أمام هذا الاتهام، وأبو عبد الله بن الجلاء سئل عن "الرجل يدخل البادية بلا زاد؟ فقال: هذا من فعل رجال الله عز وجل، قال: فإن مات؟ قال: الدية على القاتل"[٣]. فرجال الله يحق لهم السياحة بلا زاد وأن الله برأيه كفيل بحفظهم، ولا اعتراض من الشرع لأن الرسول صلى الله عليه وسلم بُعث للأقوياء والضعفاء على السواء، ومن باب تعليم الضعفاء أمرهم بالتزود، أما رجال الله، فشأنهم مختلف.

---

[١] ـ ص٣٠٢ تلبيس إبليس
[٢] ـ ص٣٠٠ نفسه
[٣] ـ ص١٧٨ طبقات الصوفية

اللاتزود عند الغزالي جائز رغم سنة الأولين "وهو من أعلى مقامات التوكل" ولذلك كان يفعله الخواص"[1]، فالخواص الذي هو من الأكابر حجته في إباحة اللاتزود، أن يكون المسافر ممن ارتاض على الجوع اسبوعياً على الأقل، أو من له القدرة على أكل الحشائش وإلى ما هنالك، وإلا فهو آثم "ساع إلى هلاك نفسه"[2]، "ولا يصح التوكل – كما يقول – إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام"[3]. ولكن التريض والتدرب على الجوع سبب وما هو بالتوكل المزعوم للأكابر.

وماذا لو سألنا الغزالي عن عيال هذا السائح في الصحراء، وقد تركهم بلا زاد ولا معين؟ يقول وقد فكر ملياً في هذه المسألة: "التحقيق أنه لا فرق بينه وبين عياله، فإنه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة، وعلى الاعتداد بالموت على الجوع. رزقاً وغنيمة في الآخرة، فله أن يتوكل في حقهم"[4]. فعلى الأطفال إذن أن يعاهدوا آبائهم بالصبر على الجوع حتى الموت ليرزقوا الجنة، وعندها لا بأس في تركهم مع هذا العهد، ليذهب إلى سياحاته مطمئن النفس هادئ البال.

والكرامة هي الأخرى من جملة البراهين على استقامته مع الله دون العقل والأسباب، وأبو سعيد الخراز يقول: "دخلت البادية بغير زاد

---

[1] - ص٢٦٦ ج٤ إحياء علوم الدين
[2] - ص٢٦٦ نفسه
[3] - ص٢٧٣ نفسه
[4] - ص٢٧٢ ج٤ نفسه

فأصابتني فاقة، فرأيت المرحلة من بعيد فسررت بأن وصلت، ثم فكرت في نفسي أني سكنت واتكلت على غيره – تعالى – وآليت أن لا أدخل المرحلة إلا أن أحمل إليها، فحفرت بنفسي بالرمل حفرة، واريت جسدي فيها إلى صدري، فسمعت صوتاً في نصف الليل عالياً: يا أهل المرحلة، إن لله تعالى ولياً حبس نفسه في هذا الرمل فالحقوه، فجاء جماعة فأخرجوني وحملوني إلى القرية"[١]. فإن الله سخرهم لإنقاذه لاتكاله عليه!

[١] - ص٢٧١ نفسه

ـ التوكل والتسول:

لقد نادى المتصوفة بمصطلح إسقاط التدبير إتماماً لاعتقادهم في التوكل، والشيخ عبد القادر الجيلاني لن يتوانى عن استنطاق سفيان الثوري قائلاً حسب روايته: "لو أن السماء حديد لا تمطر والأرض صخر لا تنبت واهتممت برزقي في الطلب إني كافر"[1]. فالاهتمام بالرزق والسعي إليه كفر وشرك برأيه، والشيخ علي الخواص البرلسي يقول: "من وقف مع الأسباب أشرك مع الحق"[2].

وإذا ما كان الرزق من السماء فلا معنى للعمل في الأرض حسب الصوفي إلا تكذيب الله تعالى والشرك به، "إذا كنت مع الأسباب – كما يقول عدي بن مسافر – فاطلب رزقك من الأرض فإنك لم تعط من السماء"[3]، وكان "واصلاً الأحدب قرأ "وفي السماء رزقكم وما توعدون"، فقال: رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض والله لا طلبته أبداً"[4]. ولن أقوم بعدها بعمل قط.

"أرح نفسك من التدبير"[5] تلك هي نصيحة ابن عجيبة المؤمن بجبرية القضاء والقدر، قائلاً:

---

[1] ـ ص١٢٦ الفتح الرباني
[2] ـ ص١٦٣ ج٢ الطبقات الكبرى
[3] ـ ص١٣٧ ج١ نفسه
[4] ـ ص١٦٧ الرسالة القشيرية
[5] ـ ص١٦ ج١ إيقاظ الهمم

"سَلِّم لسلمى وسر حيث سارت   واتبع رياح القضا ودر حيث دارت" [1]
"ما ثم إلا ما أراد   فاترك همومك واطرح" [2]

فالانهماك في التدبير والاختيار يدل على انطماس البصيرة، ولقد أحسن الشاعر – كما يروي الغزالي – حيث قال:

"جرى قلم القضاء بما يكون   فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق   ويُرزق في غشاوته الجنين" [3]

وروى ابن عربي في فتوحاته قائلاً: "يحكى أنه اجتمع متحرك وساكن، فقال المتحرك: الرزق لا يحصل إلا بالحركة، وقال الساكن: الرزق يحصل بالحركة وبالسكون وبما شاء الله وقد فرغ الله منه. فقال المتحرك: فأنا أتحرك وأنت اسكن حتى أرى من يُرزق. فتحرك المتحرك فعندما فتح الباب وجد حبة عنب فقال: الحمد لله غلبت صاحبي فدخل عليه وهو مسرور فقال له: يا ساكن تحركت فرزقت، ورمى بحبة العنب إلى الساكن. فأخذها الساكن فأكلها وحمد الله وقال: يا متحرك سكنت فأكلت! والرزق لمن تغذى به لا لمن جاء به. فتعجب المتحرك من ذلك ورجع

---

[1] - ص١٧ ج١ نفسه
[2] - ص١٨ ج١ نفسه
[3] - ص٢٧٣ ج٤ إحياء علوم الدين

إلى قول الساكن"[1]. فسيان التحرك والسكون! ولكم سهر الليالي أولياء التصوف لصياغة هكذا براهين.

وقد سئل الجنيد ذات مرة عن طلب الرزق والسعي إليه "فقال لهم: إن علمتم أين هو فاطلبوه. فقالوا: نسأل الله تعالى. فقال لهم: إن علمتم أنه ينساكم فذكروه. فقالوا له: كيف الحيلة؟ فقال: ترك الحيلة"[2]. أي: دعكم من العمل، من الأسباب، من الدعاء، فليس لكم إلا ترك التدبير، ترك الأسباب أو ترك الحيلة ولا بد لرزقكم أن يسعى إليكم ولا قدرة لأحد بردِّه عنكم.

وتفسير التوكل على الله – عند شقيق البلخي – أن تعرف أن الله تعالى خلقك وهو الذي ضمن رزقك وتكفَّل برزقك، ولم يحوجك إلى أحد، وأنت تقول بلسانك: "والذي يطعمني ويسقيني"-. فالتوكل أن يطمئن قلبك بموعود الله-. لأن رزقك لا يعطى لأحد سواك"[3]، ورأى ذات مرة حسب رواية القشيري "مملوكاً يلعب ويمرح في زمان القحط، والناس مهتمون فيه، فقال له شقيق: ما هذا النشاط الذي فيك؟ أما ترى ما فيه الناس من الجدب والقحط؟ فقال المملوك: وما عليَّ من ذلك ولمولاي قرية خالصة يدخل عليه منها ما نحتاج إليه؟ فانتبه شقيق البلخي وقال: إذا كان لمولاه قرية ومولاه مخلوق فقير، وهو لا يهتم برزقه، فكيف يسوغ للمسلم أن

---

[1] - ص٤٩٦ ج٢ بـ١٩٨ الفتوحات المكية
[2] - ص٨٥ قلادة الجواهر
[3] - ص٢٤٨ تاريخ التصوف الإسلامي

يهتم برزقه ومولاه غني يعطي ويمنع ما يشاء. فترك الدنيا والتجارة وسلك طريق التصوف"[1]، وأصبح من كبار المتسولين، وكان "يقول لمن في مجلسه: أرأيتم إن أماتكم الله اليوم هل يطالبكم بصلاة غد؟ فيقولون له: يوم لا نعيش فيه كيف يطالبنا بصلاته؟ فيقول لهم: فإن كان لا يطالبكم بصلاة غدكم فكيف تطالبونه أنتم برزق غد وعسى أن لا تصيروا إليه؟"[2]، وتلميذه حاتم الأصم كان يقول: رأيت "كل الناس في شك من أمر الرزق، وإني توكلت على الله تعالى- فلم اشغل نفسي بشيء قد تكفل لي به ربي"[3].

ترك التدبير وكل ما له علاقة بالأسباب من الأحوال الشريفة، "ومن أراد أن يتذوق شيئاً من هذه الأحوال – كما يقول الحلاج – فلينزل نفسه إحدى منازل ثلاث: إما أن يكون كما كان في بطن أمه مدبَّراً غير مدبِّر، مرزوقاً من حيث لا يعلم، أو كما يكون في قبره، أو كما يكون في يوم القيامة"[4]. فالتدبير عند ذي النون المصري أيضاً من أكبر الحجب، فمن الحجب برأيه "ملاحظة النفس وتدبيرها- والتستري كذلك يعتبر التدبير حجاب الخلق الذي حجبهم عن خالقهم ومربيهم، بل إنه ليذهب إلى حد

---

[1] - ص١٤٠ الصوفية في نظر الإسلام
[2] - ص١٤١ نفسه
[3] - ص٢٥٦ تاريخ التصوف الإسلامي
[4] - ص٦٨ الحلاج شهيد التصوف الإسلامي

اعتباره أمارة من أمارات الشرك الخفي- أمارة على الغفلة عن الله"[1]، ومن أبرز تعاليم الطريقة الشاذلية "القول بإسقاط التدبير"[2]، والأطرف من ذلك، أنه "صلى أبو يزيد خلف إمام في بعض المساجد. فلما كان بعد ساعة أخذ الإمام يسائله من أين تأكل؟ فقال له أبو يزيد: اصبر حتى أعيد الصلاة التي صليت خلفك، فإنه لا تجوز الصلاة خلف من لا يعرف الرزاق"[3]، أما النوري فقد كان ذات مرة في مجلس السلطان، فسأله: "من أين تأكلون؟ فقال: لسنا نعرف الأسباب التي تُستجلب بها الأرزاق، نحن قوم مُدَّبرون"[4]. ولا بد للسلطان أن يهبه من عطاياه لهذه الإشارة من الاستجداء بالتلميح.

---

[1] - ص٣٢٥ من التراث الصوفي
[2] - ص٢٩٣ المدخل إلى التصوف الإسلامي
[3] - ص١٤٨ النور من كلمات أبي طيفور
[4] - ص١٦٩ طبقات الصوفية

ـ إسقاط التدبير وترك الحرف والمهن:

أن يسعى الإنسان لحرفة يستعين بها على حفظ بقائه، هذا من التدبر المذموم فإسقاط التدبير أو الأخذ بالتوكل معناه التخلي عن الحرف والمهن، فالعبودية أفضل وبها كل البديل أو الكفاية، وها هو الشيخ عبد القادر الجيلاني يصرخ كعادته: "يا غلام! أين العبودية، هات حقيقة العبودية وخذ الكفاية في جميع أمورك ـ "أليس الله بكاف عبده" وإذا صحت عبوديتك ـ تلتحق بموسى حيث قال الله عز وجل في حقه "وحرمنا عليه المراضع من قبل""[1]. وهل المراضع إلا الحرف؟ ولكنه يقول حسب رواية السهروردي: "لقد ساق الله لي أربع زوجات ما فيهن إلا من تنفق عليَّ إرادة ورغبة"[2]. فقد اتخذ العبودية والتوكل بديلاً عن حرف التكسب فمنَّ الله عليه بأربع مرضعات ينفقن عليه، فسيان التحرك والسكون!

الحرف منكرة، إنها من أفكار الشيطان التي يبثها بين الخلق، نشراً للشرك بين المؤمنين، وهذا هو أيضاً رأي الله نفسه كما يزعم المتصوفة في أحاديثهم القدسية عن ربهم، فقد "قال بعض المنقطعين كنت ذا صنعة جليلة فأريد في تركها. فحاك في صدري من أين المعاش؟ فهتف بي هاتف لا أراه: تنقطع إليَّ وتتهمني في رزقك، عليَّ أن أخدمك ولياً من

[1] ـ ص٣٢ الفتح الرباني
[2] ـ ص١٠٦ عوارف المعارف

أوليائي، أو أسخر لك منافقاً من أعدائي"[1] ينفق عليك، فإن الله يسخر للصوفي إذا ما اتكل عليه محبيه وأعداءه، وتلك سنة الله لكل من ترك الحرفة والعمل "وكان بشر الحافي - كما يروي الغزالي – يعمل المغازل فتركها، وذلك لأن البغدادي كاتبه قال: بلغني أنك استعنت على رزقك بالمغازل، أرأيت إن أخذ الله سمعك وبصرك، الرزق على من؟ فوقع ذلك في قلبه فأخرج آلة المغازل من يده وتركها"[2]، ومن آدابهم كما يقول السلمي: "ترك الاهتمام بالرزق وقلة الاشتغال لطلبه"[3]، أما الشيخ محمد بن قسوم فقد كان خياطاً يعمل بمهنته هذه لكسب عيشه "فقعد يوماً وقد فرغت نفقته فأخذ المقص وأسباب شغله، فسمع الباب قد فُتح ثم أغلق، فخرج فلم يجد أحداً وقد رُمي له بستة دنانير فأخذها ودخل ورمى المقص في البئر، وقال: الله يدبر عيشي وأنا أدبره؟ وأتعنى فيما ضمن لي، الرزق يطلبك لا أنت تطلبه. فلازم باب الفتح وترك الحرفة"[4]. وهل ينسى الله عز وجل من ترك حرفته تقرباً إليه، فقد جلس الرجل أخيراً ولا عمل له إلا انتظار رزقه من الفتوح أو الصدقات، وبذلك استراح من الشرك وسلم له التوحيد في عقيدته، فالمتوكلون في العرف الصوفي هم الذين جلسوا

---

[1] - ص١٠٣ عوارف المعارف

[2] - ص٢٦٩ ج٤ إحياء علوم الدين

[3] - ص٣٥ ج٢ الفتح الإلهي

[4] - ص٥٦ روح القدس في محاسبة النفس

منتظرين الفتوح حيث هي كما يقولون: الأبواب التي يفتحها الله لهم"[١]، "وقبيح بالمريد – كما يقول القشيري – أن يكون أسير حرفة"[٢]، لأن الحرفة ستكون معبوده وإلهه في شركه، فقد "رأى أبو يزيد رجلاً فقال له: ما حرفتك؟ فقال: خربنده. فقال: أمات الله تعالى حمارك لتكون عبد الله لا عبد الحمار"[٣]، والحلاج يقول: "إذا رأيت المرء يشتغل بالرخص والكسب فليس يجيء منه شيء"[٤]. فعلى الصوفي أن يكون عبداً لله لا لسواه، وقيل من علامات العبودية ترك التدبير وشهود التقدير"[٥]، أو هي كما يقول الجنيد "ترك الأشغال والاشتغال بالشغل الذي هو أصل الفارغة"[٦]، "فالذي يستعصي في التدبيرات الدقيقة – كما يقول سهل التستري – في تفضيل الاكتساب ووجوهه -. يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها"[٧]، ويروي الشيخ أحمد الحرار قصته في ترك الحرفة قائلاً: أن أخاه زاره فلم يجد ما يطعمه وهو العامل في مهنة الحرير "وإذا بعصفور كبير دخل من شباك البيت، وألقى في حجري قيراط كبيراً فأخذته واشتريت به ما آكل، وقال: لم أزل أتسبب في الحرير إلى أن نُهيت عن السبب-. إلى أن قيل لي

---

١ - ص٥٥ في التصوف الإسلامي وتاريخه
٢ - ص١٨٤ الرسالة القشيرية
٣ - ص٩١، ٩٣ نفسه
٤ - ص٩٣ نفسه
٥ - ص٩١ نفسه
٦ - ص٩٠ نفسه
٧ - ص٢٩٦ ج٤ إحياء علوم الدين

تتركه وإلا أعميناك فتركته"[1]. فإن الله سبحانه أمره بترك حرفته وإلا عاقبه بالعمى حفاظاً على التوحيد، والغزالي يقول: "وعلامة فناءك عنك وعن هواك ترك التكسب"[2]، فترك التكسب من علامات التوكل ومن علاماته أيضاً الرضى بالموت جوعاً، فالتوكل كما يقول: "ليس انقطاعاً عن الأسباب، بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة والرضا بالموت إن تأخر الرزق"[3]، "فإن مات واحد منهم جائعاً راضياً، فله الشهادة والقرب من الله تعالى"[4].

الحرفة لا تليق بالصوفي، ولا العمل مهما يكن، لأنه قائم على التوحيد والتوكل، ولا عمل له إلا الرياضات، وهنا يكون أصل الفارغة على حد تعبير الجنيد، وهذا غير ممكن كما يقول الغزالي إلا لأصحاب الطريق الصوفي الباطني لأن "الكسب يمنع السير بالفكر الباطن"[5]. فلهؤلاء المتصوفة إذن حق الأخذ من أيدي الناس فتوحاً ونذوراً وتسولاً دون غيرهم من علماء الظاهر.

التوكل والأخذ بالأسباب لا يلتقيان عند الواصلين، وهؤلاء فقط هم الجديرون بالتسول أو التوكل، أما العوام أو المريد فله العمل حتى يكون

---

[1] - ص٣٦ سير الأولياء
[2] - ص٢٤ ج٤ روضة الطالبين
[3] - ص٢٧٣ ج٤ إحياء علوم الدين
[4] - ص٢٩٦ ج٤ نفسه
[5] - ص٢٧٥ ج٤ نفسه

له الوصول، والشيخ عبد القادر الجيلاني يقول: يا جاهل ما أعرف إلا الكسب أو التوكل على الحق عز وجل، الأخذ بالكسب في بداية الإيمان ثم عند قوة الإيمان الأخذ من الله عز وجل"[١]، "فالكسب بداية والتوكل نهاية"[٢]. فللمبتدئين في الطريق أو المريدين أن يعملوا ولا ضير ما داموا واحداً من موارد رزق الواصلين، ولن يتوانى شيخنا عن ظلم الأنبياء في سبيل ترسيخه لأصول التسول حيث يقول: "الأنبياء عليهم السلام اكتسبوا واقترضوا وتعلقوا بالأسباب في أول أمرهم وفي الآخر توكلوا"[٣]. فاكتساب الأنبياء واتخاذهم للأسباب على رأيه ليس تعليماً للضعفاء ولا اتخاذاً للرخص كما قال الغزالي وإنما لنقص في درجات توكلهم لما كانوا في بداية الطريق، أما عند تمكنهم في المراتب العليا للتوكل، فقد تركوا العمل واكتساب الرزق ليعيشوا على كد الآخرين وأرزاقهم، والشيخ أبو عبد الله محمد بن سالم البصري، هو الآخر وضع الرسول صلى الله عليه وسلم عنوة في قوالب التصوف، مستخدماً التمييز بين الحال والسنة قائلاً: "التوكل حال رسول الله صلى الله عليه وسلم، والكسب سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإنما استن الكسب لمن ضعف عن حال التوكل، وسقط عن درجة الكمال، التي هي حاله صلى الله عليه وسلم، فمن أطاق

---

[١] - ص٢٤٦ الفتح الرباني
[٢] - ص٢٧٧ نفسه
[٣] - ص١٢٦ نفسه

التوكل، فالكسب غير مباح له بحال"[1] ومن ضعف عن حال التوكل التي هي حال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فليكتسب لئلا يسقط عن درجة سنة النبي صلى الله عليه وسلم كما سقط عن درجة حاله"[2].

ونفس الفكرة مع بعض التعديل نراها عند سهل التستري حيث يقول: لا يصح الكسب لأهل التوكل إلا لاتباع السنة، ولا لغيرهم إلا للتعاون"[3]. فالسنة بما تعنيه من الأخذ بالأسباب تمثل إذن الظاهر من النبوة، والتوكل أو التسول يمثل باطنها.

[1] - ص٤١٤ طبقات الصوفية
[2] - ص١١٦ ج١ الطبقات الكبرى
[3] - ص٨٥ التعرف لمذهب أهل التصوف

ـ العبادة عمل الصوفي:

الصوفي كما يبدو كسول ولا يحب العمل رغم كونه من أهم العبادات عند الله، ولو لكسب رزقه ورزق عياله على الأقل، وآثر الجلوس في بيته للعبادة والتأمل دونما عمل إلا انتظار الفتوح، وها هو الغزالي يتساءل ليجيب نفسه قائلاً: "فإن قلت فما الأفضل – للصوفي – أن يقعد في بيته أو يخرج ويكتسب؟ فاعلم أنه إن كان يتفرغ بترك الكسب لفكر وذكر وإخلاص واستغراق وقت بالعبادة. فالقعود له أولى"[١]، "فملازمة الذكر أفضل الأعمال على الدوام"[٢]، ويقول ابن البنا معرِّفاً التوكل بأنه: الشغل - دون الكسب - بالعبادة محض التوكل ورأي السادة"[٣]. فلب التوكل عند أكابر المتصوفة هو الشغل بالعبادة دون الكسب أو اتخاذ الأسباب لكسب الرزق. "فالاشتغال بالعبادة – كما يقول ابن عجيبة – والتجريد عن الأسباب من أعظم القرب عند ذوي الألباب"[٤].

الأرزاق كالآجال وما خلق الله الإنسان إلا لعبادته "ما خلقه إلا لعبادته سبحانه وتعالى وهو يرزقه من حيث شاء، فلا يشغل نفسه برزقه – كما يقول ابن عربي – كما لا يشغل نفسه بأجله فإن حكمهما واحد"[٥].

---

[١] ـ ص٢٦٩ ج٤ إحياء علوم الدين
[٢] ـ ص٥١ ج١ نفسه
[٣] ـ ص١٤٣ ج٢ الفتح الإلهي
[٤] ـ ص١٤٣ ج٢ نفسه
[٥] ـ ص١٣٥ ج٤ بـ٤٩٨ الفتوحات المكية

فالكسب برأيه معارضة لما أراده الله وتكذيب بالقضاء والقدر والتوحيد، ومن لم يجعل من العبادة عملاً له فلا دين له "وقال بعضهم: لقد نظرت منصفاً في معنى قوله تعالى: "وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها"- ففوضت أمري إليه واشتغلت بالعبادة"[١] وتركت العمل.

ولكن من أين سيأتي رزق هذا القابع في الزوايا والبيوت والخلوات على الحقيقة، وقد علمنا أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة؟ إنهم الآخرون، إنهم العوام الذين يحتقرهم، فعليهم وعلى أتعابهم يعيش، وفي حقول سذاجتهم يرتع، والشيخ أبو يعقب السوسي يقول صراحة: "المتوكلون تجري أرزاقهم على أيدي العباد بلا تعب منهم وغيرهم مشغولون مكدودون"[٢].

ولكن اتكاله على الآخرين هم الأسباب التي اتكل عليها فكيف له الزعم بالتجرد عن كل ما سوى الله بما فيها الأسباب؟ لا، فإن الله سبحانه هو الذي يلقي محبة الصوفي في قلوب الخلق أو العوام ليسخرهم له "فمن اشتغل بالله عز وجل – كما يقول الغزالي – ألقى الله حبه في قلوب الناس وسخر له القلوب كما سخر قلب الأم لولدها"[٣].

---

[١] - ص٨٧ ج٢ إيقاظ الهمم

[٢] - ص٢٦٧ ج٤ إحياء علوم الدين

[٣] - ص٧٤ ج٤ نفسه

فالخلق مسخرون للإنفاق عليه رغماً عنهم، فليس لهم من منة فيما ينفقون عليه، فمن أجل القربة كان إنفاقهم وهو القائل سبحانه: جعت فلم تطعمني"، "ومحال أن الله يُطْعَم – كما يقول ابن عربي – فلم يبق إلا أن يُطْعَم من أجله"[1]. ومن أنفق على الصوفي عندها كمن أطعم الله وأنفق في سبيله، فطوبى للمنفقين وهنيئاً للآكلين!

فليس من الصعب أن يرزق القابع في بيته، وابن عربي يقول: "روي في النبوة الأولى أن لله تعالى تحت الأرض صخرة صماء في جوف تلك الصخرة حيوان لا منفذ له في الصخرة وأن الله قد جعل له فيها غذاء وهو يسبِّح الله ويقول سبحان من لا ينساني على بعد مكاني"[2]، وقد ذكر "شقيق البلخي حسب حلية الأولياء – أنه رأى في بعض الفلوات طائراً مكسور الجناحين أتاه طائر صحيح الجناحين في منقاره جرادة فأطعمه إياها. قال شقيق: فتركت التكسب لذلك واشتغلت بالعبادة"[3]. ولا بد أن الله سيسخر لخدمته أهل الكسب إكراماً له، وماذا عليه إن اقتدى بالطير صحيح الجناح؟! أما الشيخ يعقوب الأقطع البصري فيروي قصته في التوكل قائلاً: "جعت مرة بالحرم عشرة أيام فوجدت ضعفاً، فحدثتني نفسي بالخروج فخرجت إلى الوادي لعلي أجد شيئاً يسكن ضعفي، فرأيت

---

[1] - ص٩٠ روح القدس في محاسبة النفس

[2] - ص١١٥ ج٤ بـ٤٥٨ الفتوحات المكية

[3] - ص٢٣٧ تاريخ التصوف الإسلامي

سلجمة مطروحة فأخذتها فوجدت في قلبي منها وحشة، وكأن قائلاً يقول لي: جعت عشرة أيام وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة، فرميت بها ودخلت المسجد وقعدت، فإذا أنا برجل أعجمي قد أقبل حتى جلس بين يدي ووضع قمطرة وقال: هذه لك، فقلت: كيف خصصتني بها؟ قال: اعلم أنا كنا في البحر منذ عشرة أيام وأشرفت السفينة على الغرق فنذرت إن خلصني الله تعالى أن أتصدق بهذه على أول من يقع إليه بصري من المجاورين وأنت أول من لقيته، فقلت: افتحها، ففتحها فإذا فيها سميد مصري ولوز مقشر وسكر كعاب. ثم قلت في نفسي: رزقك يسير إليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادي"[1]. والمستفاد من هذه القصة أنه لا يجب على الصوفي أن يمل من انتظار الرزق إن أراد النجاة من المآزق.

وهنالك قصة أخرى توضح اعتماد المتصوفة على النذور تقول: "إن شخصاً نذر إن ولدت فرسي هذه حصاناً فهو لسيدي عيسى بن نجم. فولدت له حصاناً فلما كبر أراد أن يبيعه وقال: إيش يفعل سيدي عيسى؟ فبينما هو مار به ذات يوم وقد صار تجاه سيدي عيسى رمح من صاحبه حتى دخل الزاوية فرمح صاحبه وراءه فدخل الحصان قبر الشيخ فلم يخرج"[2]. وهكذا وصل الحق إلى صاحبه عنوة وغصباً!

[1] - ص٢٧١ ج٤ إحياء علوم الدين
[2] - ص١٠٧ ج٢ الطبقات الكبرى

أما الشيخ ذو النون المصري فيروي أسباب توبته عن اتخاذ الأسباب قائلاً: "أردت الخروج من مصر إلى بعض القرى فنمت في الطريق في بعض الصحارى ففتحت عيني فإذا أنا بقنبرة عمياء سقطت من وكرها على الأرض فانشقت الأرض فخرج منها سكرجتان إحداهما ذهب والأخرى فضة وفي إحداهما سمسم وفي الأخرى ماء فجعلت تأكل من هذا وتشرب من هذا فقلت حسبي الله قد تبت ولزمت الباب إلى أن قبلني الله عز وجل"[1]. وسبحان من أكرم أهل التصوف على كسلهم، حتى رضوا أن يكونوا عمياً مكسوروا الجناح.

وليست النذور هي الموارد الوحيدة في التصوف فهنالك أيضاً مجالس الذكر، وكل ما يلقيه الحضور في حفلات السماع على القوَّال فهو لهم من جملة الفتوح، فإذا طرح أحد الحاضرين أو "إذا خرج في حال سماعه عن خرقة أو شيء من ثيابه- فهو لهم – كما يقول الجيلاني – بحكم الفتوح"[2]، ومن خرج عما قذف به "فقد أظهر الصدق من نفسه في الحال"[3] الذي اعتراه، وإلا فهو متهم بحال شيطاني.

ومن موارد الصوفية أيضاً التي توضح طبيعة توكلهم، فضلات أصحاب البقالة، فالشيخ عثمان الخطاب على سبيل المثال "كان كل من

---

[1] - ص٩ الرسالة القشيرية
[2] - ص١٨١ ج٢ الغنية
[3] - ص١٨١ نفسه

بار عنده شيء من الخضر يقول: خلوه للشيخ عثمان، وكان إذا ضاق عليه الحال، يطلع للسلطان قايتباي يطلب منه، فيرسم له بالقمح والعدس والفول والأرز"[1].

الصوفي يبيع الجنة لمن أرادها أو لمن يدفع النقود، وتلك ظاهرة مألوفة في عالم التصوف، فقد ضمن الشيخ مدين الأشموني مثلاً الجنة أو دخولها لامرأة بثلاثين ديناراً دفعتهم إليه"[2]. وأمثال هذه القصة الشيء الكثير. وعطايا الأمراء والسلاطين والحكام أو الأكابر من الموارد الهامة في التصوف حتى قال ابن عربي فيهم: "فإنهم نواب الله وهم موضع حاجة الخلق، وهم المأمورون أن لا ينهروا السائل"[3]. وقصص المتصوفة مع الحكام أكثر من أن تحصى وما من ولي من أوليائهم إلا وله قصة في تسوله من السلاطين والحكام، والويل لمن خذلهم، فقد أرسل الشيخ أبو السعود الجارحي مثلاً: فقيرين – إلى أمير – وقالا له: يا أمير اعطنا شيئاً لله فنهرهما ولم يعطهما شيئاً. فحصل له العزل ولحقته العاهات في بدنه ومات على أسوء حال"[4]، وإذا ما طاب للشيخ المقام على كرم أمير من الأمراء، أو إذا كان بينهما الأسرار المتبادلة فإنه يذهب إليه وحده دون أن يصطحب مريديه معه كما هي العادة، والشيخ إبراهيم متبولي "كان إذا

[1] - ص١٠٦ ج٢ الطبقات الكبرى
[2] - ص١٠٢ نفسه
[3] - ص٥٨٢ ج١ بـ٧٠ الفتوحات المكية
[4] - ص١٣٠ ج٢ الطبقات الكبرى

ذهب إلى أحد من الأكابر لا يأخذ معه أحداً من الفقراء ويقول: ارجعوا فإني عازم على أكل السم ولم تطيقوه"[١]، أما الشيخ أبو سعيد القلوري كان له من الحيل ما يكفيه مؤونة الرد على شكوك مريديه، فقد "دعي مرة إلى طعام هو وأصحابه فمنعهم من أكل ذلك الطعام وأكله وحده، فلما خرجوا قال لهم: إنما منعتكم من أكله لأنه كان حراماً ثم تنفس فخرج من أنفه دخان أسود عظيم كالعامود. ثم خرج من فمه عمود نار وصعد إلى الجو حتى غاب عن النظر، ثم قال: هذا الذي رأيتموه هو الطعام الذي أكلته عنكم"[٢]، أما الشعراني فيقول: "فليحذر – الشيخ – من أخذ التلامذة معه إلى الولائم"[٣]، "لا سيما والتلامذة يأكلون طعام الناس من الشبهات بشهوة نفس ويقولون لبعضهم: هذه الأيام مع سيدي الشيخ تعد من الأعمار. ويعتبون على من فاته الحضور لأجل حرفته"[٤]. وليس الصراع والأنانية من مميزات علاقة الشيخ بالمريدين فحسب، وإنما امتدت لتشمل مشايخ الطرق الصوفية مع بعضهم البعض، مما دعا الشعراني للقول: "قلَّ أن تجد اثنين من الفقراء – يقصد المشايخ – بينهما صفاء ومودة، وربما يدعى أحدهم إلى وليمة عرس فيبلغه أن أخاه هناك. فيمتنع ويكره أن

---

[١] - ص٨٥ نفسه
[٢] - ص١٤٨ ج١ نفسه
[٣] - ص٣٨ ج٢ الأنوار القدسية
[٤] - ص٣٩ نفسه

يجتمع معه، ولهذا لا يزال الخلق في بلاء بسببهم ولولا البهائم لم يمطروا"[1].

ومن جملة الموارد التي يحيى عليها المتوكل أو المتجرد إلى الله أن يأخذه الناس إلى بيوتهم لإطعامه، وتلك كما يقول الغزالي سنة الأنبياء والأولياء، فقد "قال موسى عليه السلام – حسب روايته – يا رب جعلت رزقي هكذا على أيدي بني إسرائيل يغدِّيني هذا يوماً ويعشيني هذا ليلاً! فأوحى الله تعالى إليه: هكذا أصنع بأوليائي أجري أرزاقهم على أيدي البطالين من عبادي ليؤجروا فيهم. فلا ينبغي أن يُرى المعطي إلا من حيث إنه مسخَّر مأمور من الله تعالى"[2].

فالبطالين، حتى الذين لا يتورعون عن أكل الحرام يجب أن يتكفلوا بأرزاق أولياء التصوف غير مشكورين لأن الله سخرهم لذلك رحمة بهم أو ليأخذوا أجرهم منه تعالى. فليست اليد العليا هي الأفضل، وإنما الفضل للأولياء الذين أصبحوا سبباً في اكتساب الأجر المؤدي إلى النعيم والسعادة الأبدية.

الديون هي الأخرى من موارد المتوكلين، ولكنهم غالباً ما يتملصون من سدادها، فالشيخ أبو حامد البلخي مثلاً "كان عليه سبعمائة دينار ديناً

---

[1] - ص٢٠ ج٢ نفسه

[2] - ص٢١٠ ج٤ إحياء علوم الدين

وغرماؤه عنده فنظر إليهم وقال: اللهم إنك جعلت الرهون وثيقة لأرباب الأموال وأنت تأخذ عنهم وثيقتهم فادعني – أي أمتني – قال: فدق داق الباب وقال: أين غرماء أحمد، فقضى عنه ثم خرجت روحه ومات"[1]. وعليه فلا مانع من إقراض الصوفي ما شاء من الأموال لأنه سيسددها ولو رهن نفسه إلى الموت، ولكنه طالما يخيِّر الناس ما بين موته وأموالهم فلا بد لهم أن يتركوه ولو من باب الأسوة بهذه الحكاية.

وللقوم حيل أخرى كثيرة للتخلص من الديون، فقد استقرض الشيخ أحمد بن خضرويه من رجل مائة ألف درهم. فقال له الرجل: أليس أنتم الزهاد في الدنيا؟! ما تصنع بهذه الدراهم؟ قال: أشتري بها لقمة، فأضعها في فم مؤمن، ولا أجترئ أن أسأل ثوابه من الله تعالى! قال: لم؟! قال: لأن الدنيا كلها لا تزن عند الله جناح بعوضة، وما مائة ألف درهم في الدنيا"[2]. وحتماً لا بد للرجل من احتقار نفسه إن طالب بديونه أمام هذا المنطق الذي فيه الرد لقوله صلى الله عليه وسلم: "من أخذ شيئاً بالحياء فهو حرام".

الزكاة والصدقات من أهم موارد المتوكلين الذين رابطوا بقلوبهم في صحبة الله عز وجل ولا يجوز إعطائها حسب ابن عربي لغيرهم. وإن احتججت بالقرآن الذي حدد مصارفها، فسوف تراه وقد امتشق التأويل

---

[1] - ص١٦ – ١٧ الرسالة القشيرية

[2] - ص١٠٤ طبقات الصوفية

ليحبسها فيهم دون غيرهم، والفقير حسب تأويله من "لا يزال مطأطئ الرأس لانكساره فافهم هذه الإشارة "التي تشير إلى أهل التصوف-.

"أما المساكين" فالمسكين من يدبره غيره "أي الذي ترك التدبير" فلهذا فرض الله له أن يعطى الزكاة-.

وفي الرقاب: فهم الذين يطلبون الحرية من رق كل ما سوى الله "إنهم المتجردون لله الذي أفردوا القصد إليه-." ففي مثل هذه الرقاب تخرج الزكاة"[1].

وأما القائمون عليها فهم "المعلم والأستاذ"[2]، "أي: الشيخ الصوفي القائم على تربية مريده دون سواه من مشايخ العلم وطلابه".

أما "المؤلفة قلوبهم" فهم الذين تآلفهم الإحسان على حب المحسن"[3]، أو الذين يرون الله في كل شيء بما في ذلك يد المعطي أو المحسن.

"والغارمين": هم الذين أقرضوا الله قرضاً حسناً عن أمره"[1] أي: هم الذين لهم الأوامر الإلهية في كل ما يفعلونه "فيأخذوا الزكاة الغارم الذي أعطى على الوجوب"[2] أو الأمر.

---

[1] - ص٥٦٣ ج١ بـ٧٠ الفتوحات المكية

[2] -ص٥٦٣ نفسه

[3] - ص ٥٦٣ نفسه

ومن حيث هم مجاهدون برأيه لقيامهم بالمجاهدات أو الرياضات الصوفية فلهم الزكاة "فالمجاهدون معلومون بالعرف من هم، والمجاهدون أنفسهم أيضاً – أي أصحاب الرياضات الصوفية – في سبيل الله فيعاونون بذلك – أي بالزكاة – على جهاد أنفسهم"[٣].

وعن ابن السبيل يقول: "وأبناء السبيل معلومون – في الظاهر – وهم في الاعتبار – أو على الحقيقة أبناء طريق الله"[٤] أي: أهل الله أهل التصوف.

وبهذه التأويلات الباطنية تكون هيمنة المتصوفة على أموال الزكاة والصدقات دون مستحقيها من المسلمين.

وللقوم أبواب أخرى غريبة في استجداء الخلق، منها إحراجهم حتى ينفقوا عليهم حفاظاً على سمعتهم، ويحكي الشيخ أبو نصر الصوفي قائلاً: خرجت من البحر بعمان وقد أثر في الجوع، فكنت أمر في السوق فبلغت حانوت حلاوي فرأيت فيه حملاناً مشوية وحلوء، فتعلقت برجل وقلت اشتر لي من هذه الأشياء، فقال: لماذا، ألك عليَّ شيء أو عندي دين؟ فقلت: لا بد أن تشتري لي من هذا. فرآني رجل، فقال: خلِّه يا فتى، إن الذي يجب عليه أن يشتري لك ما تريد أنا لا هو، اقترح علي واحكم بما

---

[١] - ص٥٦٣ نفسه
[٢] - ص٥٦٤ نفسه
[٣] - ص٥٦٤ نفسه
[٤] - ص٥٦٤ نفسه

تريد، ثم اشترى لي ما أردت ومَر"[1]. وهكذا أكرمه الله بمن أرسله للإنفاق عليه.

وهنالك "الوصايا" فهي "مال أوصى به للصوفية"[2]، وما أكثر وصايا السذج الذين يظنون صلاح الصوفي في دينه واعتقاده، وهنالك "الوقف" أيضاً أي: ما وقف على رباط الصوفية وسكانه"[3]، وغالباً ما يكون من كبار التجار أو الأمراء الذين هم بحاجة إلى الدعاية والسمعة الحسنة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً.

---

[1] - ص١٣٢ الرسالة القشيرية

[2] - ص١٥٣ ج٢ إحياء علوم الدين

[3] - ص١٥٤ ج٢ نفسه

ـ المريدون موارد:

يعتبر المريد في العرف الصوفي ابناً روحياً لشيخه، والبنوة هذه أعظم درجة عندهم من قرابة الابن بوالديه، ولهذا نرى مشايخ التصوف يجتهدون بكافة السبل للاستفادة من المريد، تماماً كما هي حقوق الوالدين على ابنهما إن لم يكن أعظم، وابن عربي تبرع بهذا الإفتاء قائلاً: "يقول الله تعالى: "وإن ليس للإنسان إلا ما سعى" وأفضل ما أكله الرجل من كسبه، وأن ولده من كسبه، والتلميذ – أو المريد – ولد ديني – أو روحي – بلا شك، فما هو من سعي الإنسان – وجهده – فهو له"[1]. فكل ما لدى المريدين من أموال وأملاك وما قاموا بتحصيله فهو للشيخ حلال وكثيرون هم المشايخ الذين ربطوا بين وصول المريد إلى الأسرار الإلهية وبين الإنفاق عليهم، فموسى السدراني "كان من أهل السعة في الدنيا فخرج عنها – أي عما يملك في سبيل أهل الله من المتصوفة – ففتح الله عليه في ثمانية عشر يوماً التحق بالأبدال"[2]، فعلى قدر الإنفاق تنال المراتب، والويل للمريد المخبئ أمواله عن شيخه أو عن والده الروحي، وها هو الشيخ عبد القادر الجيلاني يخاطب المريد قائلاً: "ويلك تدعي إراداتي وتخبئ مالك عني، كذبت في دعواك، المريد ليس له قميص ولا عمامة ولا ذهب ولا مال بالإضافة إلى شيخه، إنما يأكل على طبقه ما

[1] ـ ص٥٧٧ ج١ بـ٧٠ الفتوحات المكية
[2] ـ ص٧٥ روح القدس في محاسبة النفس

يأمره بأكله"[1]. فمن القحة إذن أن يسأل المريد أين ذهبت أمواله التي أعطاها لشيخه، ولو لم يطعمه إلا الأسودان "الخبز والماء".

ولن ينسى الشيخ عبد القادر استخدام ابن حنبل لاستغلال بسطاء المسلمين حيث قال على لسانه: "أنفقوا أموالكم عليهم – أي على المتصوفة – فإن لهم عند الله عز وجل غداً دولة"[2]، وليس ابن حنبل يوصي بمشايخ المتصوفة خيراً وحسب وإنما الرسول أيضاً قد اهتم بهم، وأحد المتصوفة يقول: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: وقوفك بين يدي ولي لله كحلب شاة أو كشي بيضة خير لك من أن تعبد الله حتى تتقطع إرباً إرباً، فقلت له: حياً كان أو ميتاً! فقال: حياً كان أو ميتاً"[3].

فعلى المريد السالك إلى الله أن يخرج عن كل أملاكه في سبيل الشيخ سواء كانت عقارات أو دنانير أو ثياب، وهذا ضروري لتحصيل رتبة أو مقام الورع ومن أجل الورع يقول ابن عربي: "إن من عباد الله من يكشف الله له فيما بيده من الرزق، وهو مُلك له، إنه لفلان ولفلان، ويرى أسماء أصحابه عليه- فإن الحكم للعلم في ذلك، وإن لم يُكاشف فالأولى به أن يخرج عن ماله كله صدقة لله، ورزقه لا بد أن يأتيه ثقة بما

---

[1] - ص٢٨٦ الفتح الرباني
[2] - ص٣٠٢ نفسه
[3] - ص٢٧٧ قلادة الجواهر

عند الله. "أما إن لم يكن عنده ثقة بالله، فيذمه الشرع إن خرج عن كل ماله، فمن بعد ذلك يسأل الناس"[١]. وبالطبع فإن المريد لم يأت للتصوف إلا وفي ذهنه تحصيل الكشف والقوى الخارقة، وما دام لا كشف له وهو مريد فلا بد أن يخرج عن كل ماله إلى شيخه إن كان موقناً واثقاً بربه ولا مذمة للشرع عندها عليه، لينطلق بعدها للتسول وسؤال الناس حسبما يأمره به شيخه، "وإذا أراد الله بعبد خيراً – كما يقول أبو عمر السلمي – رزقه خدمة الصالحين والأخيار ووقوفه لقبول ما يشيرون به عليه"[٢]، حتى ولو كان كارهاً لما يشيرون به عليه.

رضا الشيخ من رضا الله، ولا أعظم من أن يحوز المريد على قلب شيخه، ولكن لكل شيء كما تعلمون ثمن، والمريد إبراهيم معاذان مثلاً "كان قد بلغ حبه من قلب أبي يزيد من كثرة تحببه إليه وإنفاقه عليه أن قال أبو يزيد: إن لله تعالى خليلاً اسمه إبراهيم ولنا أيضاً خليل اسمه إبراهيم"[٣]. وبما أنك لم تنس أيها القارئ أن أبا يزيد هذا أعاد صلاته لما سأله الإمام عن مصدر رزقه لجهله بالرزاق، أو لعدم معرفته إلى التوكل كما يزعم!!

---

١ - ص٥٨٠ ج١ بـ٧٠ الفتوحات المكية
٢ - ص١٢٠ ج١ الطبقات الكبرى
٣ - ص٨٠ النور من كلمات أبي طيفور

أما المريد الغشاش الذي يخبئ أمواله التي تسولها دون شيخه، فلن يمر بلا عقاب والمريد أبو جعفر بن بركات مثلاً يقول: "كنتُ مريداً أجالس الفقراء ففتح عليَّ – وأنا أتسول – بدينار فأردت أن أدفعه إليهم – أو إلى الشيخ – ثم قلت في نفسي: لعلي أحتاج إليه، فهاج بي وجع الضرس، فقلعت سناً فوجعت الأخرى حتى قلعتها. فهتف بي هاتف: إن لم تدفع إليهم الدينار فلا يبقى في فمك سن واحدة"[١]. فعلى المريد الذي يرسله الشيخ للتسول ألا يخبئ شيئاً مما جناه وإلا فالعاقبة وخيمة.

ليس للمريد بعد أن أعطى أملاكه لشيخه أن يتسول كيفما شاء ومتى شاء، لا، "فأخذ المريد – كما يقول ابن عجيبة – من أيدي الناس وسؤاله لهم من غير ضرورة تدل على إفلاسه – في الطريق -. اللهم إلا إذا كان قصده إعانة شيخه أو فقير مثله فلا بأس به"[٢]. فالتسول لا يجوز إلا إن كان في سبيل التصوف، والشيخ يوسف العجمي مثلاً "كانت طريقته التجريد وأن يخرج كل يوم فقيراً من الزاوية يسأل الناس إلى آخر النهار"[٣]، والشيخ محمد الشربيني "كان من طريقته أنه يأمر مريديه بالشحاتة على الأبواب دائماً في بلده"[٤]، والقائم بنوبة التسول يسمى خادم، والغزالي يوضح ما يقوم به هذا الخام قائلاً: "خادم الصوفية يخرج إلى

---

[١] - ص١٦٨ الرسالة القشيرية
[٢] - ص٢٧٢ ج٢ الفتح الإلهي
[٣] - ص٦٥ ج٢ الطبقات الكبرى
[٤] - ص١٣٦ نفسه

السوق ويجمع طعاماً أو نقداً ويشتري به طعاماً"[1]. وعلى ما يبدو أن فصاحة الغزالي وبيانه قد تواريا تحت جناح الحياء حتى أدغم التسول بالجمع، فالخادم وفق بلاغته يذهب إلى السوق لجمع الطعام والنقود، ولم يقل ليتسول لهم النقود والطعام.

وليس التسول قاصراً على المريدين فقط، وإنما كثيرون هم الأولياء والأقطاب الذين امتهنوا التسول طريقاً يقربهم إلى الله تعالى كما يقولون، فالشيخ أبو عبد الله الرفاعي كان "يخرج بين العشائين يطلب الكسر من الأبواب"[2]، والشيخ أبو بكر الحديدي "كانت طريقته سؤال الناس للفقراء سفراً وحضراً في طريق الحاج وغيره"[3]، وشيخ الجنيد أبو جعفر الحداد "كان يخرج بين العشائين ويسأل من باب أو بابين- ونقل عن إبراهيم بن أدهم أنه- كان يفطر في كل ثلاث ليال ليلة، وليلة إفطاره يطلب من الأبواب"[4]، والجنيد كان "يسأل"[5] الناس النقود والطعام، ومن أعلام المتسولة أيضاً الشيخ عبد الرحمن المجذوب والشيخ أبو الحسن الششتري والشيخ أبو الحسن البردعي"[6]، "وروي أن الشيخ عوف بن عبد الله المسعودي كان له ثلاث مائة وستون صديقاً، وكان يكون عند كل واحد

---

[1] - ص١٥٣ ج٢ إحياء علوم الدين
[2] -ص١٧٩ عوارف المعارف
[3] - ص١٣١ ج٢ الطبقات الكبرى
[4] - ص٩٩ عوارف المعارف
[5] - ص١٣٧ ج٢ الفتح الإلهي
[6] - ص١٣٨ ج٢ نفسه

يوماً، وآخر كان له ثلاثون. وآخر كان له سبعة إخوان"[1]، حتى أن بعضهم كالشيخ أبو عبد الله بن سالم البصري، رأى أن الكسب عن طريق التسول أو الفتوح أفضل من الكسب عن طريق العمل حيث قال: "فما يفتح بالطلب والكسب، منه طيب وخبيث، وما يفتح بالتوكل لا يكون إلا طيباً لأن ذلك من معدن طيب"[2]، ولا أشرف من ارتباط التوكل بالتسول، والشيخ علي البلبلي يقول: "جميع ما يقدم إليك من المأكل مائدة الله تعالى، فكلْ منها بالتعظيم لمن قدمها وميزان الشريعة بيدك"[3]، وقد ذكر "الشيخ أبو طالب المكي أن بعض الصوفية أوَّل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أطيب ما أكلتم من كسبكم بأنه المسألة عند الفاقة"[4].

ولو تأملت ملياً بين طبيعة المنهج الصوفي وبين حياة الصوفي في المجتمع لما رأيته راضياً بالحياة في المجتمع إلا من أجل التسول الذي هو قدره، والغزالي يقول: "روي أن زاهداً من الزهاد فارق الأمصار وأقام في سفح جبل سبعاً وقال: لا أسأل أحداً شيئاً حتى يأتيني ربي برزقي، فقعد سبعة أيام فكاد يموت ولم يأته رزقه، فقال: يا رب إن أحببتني فأتني برزقي الذي قسمت لي وإلا فاقبضني إليك، فأوحى الله جل ذكره إليه: وعزتي لا أرزقك حتى تدخل الأمصار وتقعد بين الناس. فدخل المصر

---

[1] - ص١٠٢ عوارف المعارف
[2] - ص٤١٦ طبقات الصوفية
[3] - ص١٤٩ ج٢ الطبقات الكبرى
[4] - ص١١٢ التصوف بين الحق والخلق

وقعد، فجاءه هذا بطعام وهذا بشراب، فأكل وشرب وأوجس في نفسه من ذلك، فأوحى الله تعالى إليه: أردت أن تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا! أما علمت إني أرزق عبدي بأيدي عبادي أحب إليَّ من أن أرزقه بيد قدرتي"[1].

ففي التسول إظهار لحكمة الله تعالى، وما الحيلة إذا كانت حكمة الله نفسه تقتضي أن يعيش الصوفي على كد الآخرين، وما الحيلة إذا كان الله سبحانه وتعالى – كما يقول الغزالي – "قد سلط الشفقة والمودة والرحمة على قلوب المسلمين بل أهل البلد كافة – بما فيهم المؤمنين والكفار – حتى أن كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورق عليه وانبعث له داعية إلى إزالة حاجته."[2]

حتى التسول من الأعداء من أهل الظاهر، ليس بالشيء المحظور عند الصوفي، وهذا ما يقوله أيضاً الشيخ أبو سعيد بن الأعرابي حيث "أن الله تعالى – برأيه – أعار بعض أخلاق أوليائه أعدائه، ليستعطف بهم على أوليائه"[3]. فالصوفي محتاج إلى الجميع ومن الجميع يتسول، والشيخ شبعة بن الحجاج يقول صراحة: "لولا سؤالي للمحاويج والفقراء ما

---

[1] - ص٢٦٦ ج٤ إحياء علوم الدين
[2] - ص٢٧٣ ج٤ إحياء علوم الدين
[3] - ص٤٢٩ طبقات الصوفية

جلست مع أحد"[1]. وبهذه العفة نفسها يلهث مشايخ التصوف لالتهام الزكاة والصدقات من أيدي المسلمين، بحجة توزيعها على الفقراء فقراء التصوف، ولتعزيز هذا الادعاء رووا الكثير من الكرامات والخوارق التي سخروها لهذا الغرض، وعلى سبيل المثال "قصد رجل من أهل الثغر أن يُخرج عشرين ديناراً يدفعها لأبي الفقراء – الشيخ حجاج – ثم قالت له نفسه: إخراجك أنت لها أحسن وأيقن، فنام تلك الليلة فرأى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: أتتهم من أمَّنه الله"[2]. وعندما أذعن الرجل لمشيئة الرسول صلى الله عليه وسلم، أخذهم للشيخ الصوفي ليوزعهم بمعرفته، ولما رآه قال له "أهذا بعد أن رأيت ما رأيت وهزَّه. فاستغفر الرجل منه"[3]. ولست أدري إن غفر له الشيخ ذنبه أم لا؟! وما أكثر السذج الذين يصدقون أمثال هذه الحكايات.

---

[1] - ص٥٧ ج١ الطبقات الكبرى

[2] - ص١٠٨ سير الأولياء

[3] - ص١٠٩ نفسه

ـ اليد السفلى خير من اليد العليا:

إن إباحة الصوفي للتسول من المسلمين والكفرة والمشركين والأعداء، أدى به للاصطدام مع الحديث النبوي القائل: "اليد العليا خير من اليد السفلى". فهل تراه سيقر بأن عدوه المعطي خير من الصوفي المتسول، أم أنه من جهة أخرى سيرضى تبعاً لهذا الحديث وقد اعتبر نفسه محور الكون ومدبر شؤونه أن يكون أدنى من هؤلاء العوام الذين يمد يده إليه طالباً منهم أن يعطوه شيئاً مما يملكون؟ ولكنه بعد أن نظر في المسألة ملياً، قرر أن المتسول أفضل من المعطي ويده هي اليد العليا في الخير والفضل، فالشيخ – النوري – من الذين كانوا يتسولون وبعضهم رآه ذات مرة "يمد يده ويسأل الناس، قال: فاستعظمت ذلك منه واستقبحته له، فأتيت الجنيد وأخبرته، فقال لي: لا يعظُم هذا عليك فإن النوري لم يسأل الناس إلا ليعطيهم سؤلهم في الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضره – والسهروردي – يقول: وقول الجنيد ليعطيهم كقول بعضهم اليد العليا يد الآخذ لأنه يعطي الثواب"[1]. فاليد السفلى المتسولة هي العليا إذن، "والنوري – كما يقول الغزالي – لم يسأل الناس إلا ليعطيهم"[2] الأجر في

---

[1] ـ ص١٠٢ عوارف المعارف

[2] ـ ص٢١٦ ج٤ إحياء علوم الدين

الآخرة من حيث هو سببه، فالتسول برأيه "إعانة للمعطي على نيل الثواب"[1].

وما أعظم أسرار القوم ونواياهم، فهم لا يتسولون إلا ليؤجِروا الخلق، لا لجمع الأموال والطعام، والشيخ أبو العباس المرسي يقول: "لا ينبغي للفقير أن يأخذ من أحد شيئاً وفي نيته نفع نفسه – إنما يأخذ ليثيب من يعطيه ويعوضه عليه"[2] الله في الآخرة، ولكنهم لا يقولون كما نرى باقتران التكاليف أو العبادات بالأجر والثواب على الإطلاق إلا عند حديثهم عن التسول، إلا أن من تسوَّل من أجير السوء المقيم للتكاليف فهو الأسوأ حتماً، ولكن ليس للجنة عند القوم من معنى إلا من هذا الباب، حتى جعلوا تسولهم سبباً في دخولها.

الصوفي إذن لا يتسول لنفع نفسه، وإنما لنفع المعطي يتسول، فإما يهبهم الجنة في الآخرة وإما سيدخل السرور على قلوبهم في الدنيا، والشيخ أبو سليمان الداراني يقول: "من أكل طعام أخيه ليسره بأكله لم يضره أكله شيئاً"[3]، "وقال بشر: ما سألت أحداً شيئاً إلا سرياً السقطي لأنه

[1] - ص٢٧٥ نفسه
[2] - ص١٩ ج٢ الطبقات الكبرى
[3] - ص٨٠ ج١ نفسه

قد صح عندي زهده في الدنيا، فهو يفرح بخروج الشيء من يده. فأكون عوناً له على ما يحب"[1].

الصوفي في تسوله ذا فضل عظيم، ولا فضل للمعطي قطعاً، وللتوحيد رأيه في هذه المسألة، ولهذا نراه يقول بضرورة إفناء المعطي عند الأخذ منه، أو تجاوزه بمصطلح ارتفاع الوسائط، حتى يصبح المتسول كالآخذ عن الله نفسه، والصوفي عندها وبمعنى آخر للفناء لم يتسول من لدن نفسه وإنما هو مأمور بكل أفعاله أو أن أفعاله لم تكن إلا بفعل الله، وهذا ما نراه عند الشيخ عبد القادر الجيلاني القائل: "إذا قوي القلب أخذ من الحق عز وجل على أيدي الخلق بأمر الله عز وجل – أي بعد ارتفاع الوسائط بينه وبين الله – ومعنى قولي: ارتفاع الوسائط – أي: يأخذ منهم ويتطارش عن حمدهم وذمهم. لأنه – ما عندهم – أي الأولياء – إلا هو"[2] سبحانه وتعالى "فإن اتسعت معرفته وتحقق فناؤه – أي المتسول – كما يقول ابن عجيبة – بحيث لم يبق له نظر للواسطة أصلاً – أي للمعطي – فربما يسلم له القبض مطلقاً – أي من الكافر والمسلم من الحلال والحرام – لأنه يقبض من الله ويدفع بالله"[3]، والمتصوفة كما يقول "لا يرون العطاء إلا من الله ولا يرون الخلق البتة إلا من يشهدون فيهم

---

[1] - ص٩٢ ج١ التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق

[2] - ص٢٤٦ الفتح الرباني

[3] - ص٨٤ ج٢ إيقاظ الهمم

من واسطة الحكمة"[1]، والصوفي "لسانه في طلب التسول يشير نحو الخلق وقلبه معلق بالحق"[2]، ولذلك "لا يقبض ما يُعطاه ولا يمد يده إلى الأخذ منه حتى يرى أن المعطي هو الله"[3]. وأين هي اليد العليا عندها حيث لا وجود للمعطي كله أصلاً، ومن تسول على هذا الفناء فنعم المتسول.

أما ابن عربي فقد فلسف أفضلية المتسول على المعطي قائلاً: "فمن مكر الله وفضله اليد العليا خير من اليد السفلى، فإن الصدقة تقع بيد الرحمن، ففيه مكر وفضل"[4]، أليس النبي صلى الله عليه وسلم هو القائل: إن الصدقة تقع بيدي الرحمن فيربيها كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله؟ - نعم – وذلك لأمرين: أحدهما ليكون السائل يأخذها من يد الرحمن لا من المتصدق- فتكون المنة لله على السائل على المتصدق. فإن الله طلب منه القرض والسائل – أو المتسول – ترجمان الحق في طلب هذا القرض، فلا يخجل السائل إذا كان مؤمناً من المتصدق، ولا يرى أن له فضلاً عليه، فإن المتصدق إنما يعطي لله القرض الذي سأل منه، ليربيها له، فهذا من الغيرة الإلهية والفضل الإلهي. والأمر الآخر ليعلمه أنها مودعة في

---

[1] - ص١٤٦ ج١ نفسه
[2] - ص٨٧ ج٢ نفسه
[3] - ص٨٧ نفسه
[4] - ص٥٨١ ج١ بـ٧٠ الفتوحات المكية

موضع تربو له فيه وتزيد، هذا كله ليسخو بإخراجها ويتقي شح نفسه"[1]، فالرحمن يأخذ الصدقات ويد السائل – أو المتسول – صورة حجابية على يد الرحمن، فتقع الصدقة في يد الرحمن قبل وقوعها في يد السائل، وإن شئت قلت أن يد السائل هي يد المعطي فيشكر الحق عبده – المعطي – على ذلك الإنعام ليزيده منه"[2].

أجر الصدقة يقع في كف الرحمن، هذا صحيح، فيربيه لصاحبها لا أن الصدقة هي التي تقع في يده، وأنها لمغالطة طريفة أن سوىَّ ابن عربي بين الصدقة وأجرها ليكون المعطي هو الرحمن لا المتصدق الذي أصبح ولا فضل له.

يد المتسول صورة حجابية ليد الرحمن أو هما في النيابة سيان وعندها فإما إن المتسول سيكون آخذاً من الرحمن ولا فضل للمتصدق وإما أن المتسول أعطى الشكر للمتصدق الطماع الذي سيشكر ابتغاءً للمزيد في الملك، والفضل حينئذ له لا للمتصدق، ومن قال عندها أن اليد العليا خير من اليد السفلى فهو ممكور به لا علم له بالحقيقة!!

ولما لم يطمئن ابن عربي إلى سفسطاته هذه راح بلا حياء وتلاؤماً مع مذهبه يطالب المتصدقين بفتح أكفهم عند العطاء لتكون يد الصوفي

[1] - ص٥٤٧ ج١ بـ٧٠ نفسه
[2] - ص٢٤٣ ج٤ بـ٥٥٨ نفسه

هي العليا عند الأخذ، وليس هذا فحسب فانسجاماً مع عقيدته أيضاً في التغير أو الخلق المستمر، رأى أن ما يأخذه الصوفي من المتصدق ليس مال للمتصدق نفسه أو طعامه، وإنما يأخذ أموالاً وأطعمة خلقها الله له على مثال تلك لا هي على الحقيقة، وهو تفسيره لقول الله عز وجل "كل يوم هو في شأن" ولقوله أيضاً "هم في لبس من خلق جديد". وفي ذلك كله يقول: "فكما يأخذ الرحمن الصدقة بيمينه من يد المتصدق، فمن الأدب من المتصدق أن يضع الصدقة في كف نفسه وينزل بها حتى تعلو يد السائل إذا ما أخذها على يد المعطي، حتى تكون هي اليد العليا وهي خير من اليد السفلى، واليد العليا – حسب الظاهر أو على مذهب النبوة – هي المنفقة. وأما مذهبنا الذي أعطاه الكشف إيانا فليس كذلك إنما السائل إذا بسط يده لقبول الصدقة من المتصدق جعل الحق يده على يد السائل، فإذا أعطى المتصدق صدقة وقعت بيد الرحمن قبل أن تقع بيد السائل، كرامة بالمتصدق، ويخلق مثلها في يد السائل لينتفع بها السائل ويأخذ الحق عين تلك الصدقة فيربيها"[1]. فالرحمن إذن يأخذ صدقة المتصدق على الحقيقة والصوفي يأخذ مثالها لا هي، ولذلك لا فضل لأحد عليه، هذا ما يقوله مذهب الكشف!

[1] - ص١٣٦ ج٣ بـ٣٣٦ نفسه

ومن عرف ابن عربي عرف أن ما قاله حتى الآن ليس إلا تمهيداً للوصول إلى فلسفة التسول بمنطق ومعايير عقيدته في وحدة الوجود التي تمثل القمة في طريق السالكين كلهم، فإذا لم يكن في الوجود إلا الله فمن هو المعطي عندها ومن هو الآخذ، طالما أن الله هو مجموع الكل أو مجموع أسمائه، فالمتصدق اسم إلهي والآخذ أو المتسول اسم إلهي آخر ولا تفاضل حينها بين الأسماء الإلهية ولا معنى في كون اليد عليا أو سفلى إلا عند الذين لا يعقلون حقيقة الأمر من المحجوبين "فإن كان المعطي في نفس هذا العبد حين يعطيها هو الله المعطي – كما يقول ابن عربي – فلتكن يده تعلو يد المتصدق عليه وهو السائل – أي الله – ولا بد- . وإن شاهد هذا المعطي يد الرحمن آخذة منه حين يتناولها السائل فتبقى يده من حيث أن المعطي هو الله تعلو على يد الرحمن كما هي-. فشهد المعطي أن الله هو المعطي وأن الرحمن هو الآخذ وأن الرحمة هي المُعطى وهي الصدقة"[1].

وما القضية أو العلاقة في نهاية الأمر إلا علاقة أسماء إلهية بأسماء إلهية، إنها ما بين الرحمن والرحمة وزيد وعمرو اللذان هما هنا من جملة تجلياته تعالى أو أسمائه، وما المكر عندها إلا في جهل هذه الحقائق ليكون التمييز ما بين المتصدق والمتسول.

---

[1] - ص٥٧٨ ج١ بـ٧٠ نفسه

فالصوفي في تسوله يسأل الناس أن يعطوه، هذا في الظاهر، ولكنه على الحقيقة يسأل الله لأن المسؤول ليس إلا واحداً من مظاهر الله الذي هو الكل، وفي ذلك يقول ابن عربي: وإن سأل – الصوفي – غيره بلسان الظاهر فيكون القلب حاضراً مع الله عند سؤاله. إن الله هو المسؤول الذي بيده ملكوت كل شيء بالمعنى – لأنه هو الكل – فإن الاسم الظاهر من الله هو هذا الشخص، لأنه من جملة الحروف المرقومة في رق الوجود المنشور، ولهذا رفعت الكدية عن الذين يسألون"[١]. فسنته تعالى قضت بأن ينفق بعضه على البعض الآخر حيث لا فاعل ولا موجود سواه.

وكم هو مسكين هذا المنفق أمواله على أهل التصوف، وأي جحود يلقاه على صنيعه هذا؟ فلأجل أن يبخسوه حقه حشدوا في وجهه أسلحة التوحيد والفناء والكشف ورفع الوسائط، فلا فضل له عليهم البتة ولا يده هي العليا بل بالعكس، فتارة يرونه مسخراً رغماً عنه للإنفاق عليهم، وتارة يريدونه أن يضع يده تحت يده الصوفي المتسول، وتارة أخرى يزعون بلا خجل أن الله يخلق لهم ما يأخذونه على مثال أمواله التي تذهب إلى الرحمن لا إليهم. ورحم الله الشافعي حيث قال لقد: "أُسس التصوف على الكسل"[٢]، ولما نظر ابن قتيبة في جهود المتصوفة لصياغة البراهين التي تبرر التسول من جهة، وفي البراهين الداحضة لفضل المعطي أو

---

[١] - ص٥٨٢ ج١ بـ٧٠ نفسه

[٢] - ص٣٢٠ تلبيس إبليس

المنفق من جهة أخرى، قال: ما أرى هؤلاء إلا قوماً استطابوا السؤال فهم يحتجون للدناءة"[1]، ولا أدنأ أصلاً ممن ساوى بين التسول والتوكل.

[1] - ص١٤٩ التصوف بين الحق والخلق

ـ طقوس التسول في التصوف:

ينسب المتصوفة إلى سفيان الثوري "أنه كان يسافر من الحجاز إلى صنعاء اليمن ويسأل في الطريق، وقال: كنت أذكر لهم حديثاً في الضيافة فيقدم لي الطعام فأتناول حاجتي وأترك ما يبقى"[1]، أما طريقة الشيخ ابن اليون البتحيبي فهي "أن يتوضأ الرجل ويصلي ركعتين ويأخذ الزنبيل – يعني وعاء بيده اليمنى – ويخرج إلى السوق ومعه رجل آخر يذكر الله ويذكر الناس، والناس يعطونه في ذلك الزنبيل حتى يجمع ما تيسر من الطعام ويصبه بين الفقراء – أي المريدين – فيأكلون طعاماً حلالاً بلا تكلف ولا كلفة"[2].

وللشيخ عبد القادر الجيلاني آداب أخرى تربط ما بين التوحيد والتسول، قائلاً: ومن شروط سؤاله أنه لا يراهم بل تكون إشارته إلى الله عز وجل. فيقول: هل دفع لنا – الله – إليك شيء؟ هل أحيل عليك، هل أذن لنا يا وكيل – الله -. فإذا سأل الصوفي على هذا الوجه جاز له السؤال وإلا فلا، ولا كرامة لكل مشرك"[3] أنكر وحدة الوجود.

أما الشيخ إبراهيم بن أدهم فقد كان يستخدم الأوراق المكتوبة كمتسولي هذا الزمان، ويحكى أنه كتب أبيات من الشعر على ورقة

---

[1] - ص٩٩ عوارف المعارف
[2] - ص٨٧ ج٢ إيقاظ الهمم
[3] - ص١٧٤ ج٢ الغنية

وأعطاها لأحد المتصوفة الجياع وأمره أن يعطيها لأول رجل يلقاه، ولكن المسؤول كان نصرانياً وإذ به يبكي عند قرائتها ويعطي الصوفي ستمائة دينار ثم أتى بعدها إلى ابن أدهم وأعلن إسلامه بين يديه"[١]، والشيخ أبو العباس الملثم "كان يقف يتمنى فإن أعطوه شيئاً تصدق به على الفقراء"[٢].

وللقوم طريقة أخرى انتقدها الشعراني بقوله: "ليحذر – الصوفي – من التعريض بحاجته إلى بعض الأمور بحضرة الأغنياء والمعتقدين فيه، كسؤاله عن ثمن الجبن أو الحطب أو العمامة- لإفهامهم أن الفقراء محتاجون إلى ذلك، وهم يعلمون أن ليس معه شيء يشتري به ذلك، فيبادرون بشرائه له فكأنه سأل تصريحاً"[٣].

أما الشيخ أبو زكريا السبتي لم يكن له من عمل إلا الجلوس بين القبور والترب التي حوله للمواعيد والزوار"[٤]. ولا بد لعطايا الزائرين أن تنهال عليه تماماً كبعض مشايخ زماننا الذين يبيعون قراءة القرآن والأدعية لكل من دفع الثمن. والشيخ يوسف العجمي كانت "صورة سؤاله أن يقف على الحانوت أو الباب ويقول: الله، ويمدها حتى يغيب ويكاد يسقط على الأرض- وكان رضي الله عنه يغلق باب الزاوية طول النهار. وكان إذا دق داق الباب يقول للنقيب: اذهب فانظر من شقوق الباب، فإن

---

[١] - ص٨٠ الرسالة القشيرية
[٢] - ص١٥٧ ج١ الطبقات الكبرى
[٣] - ص١٢ – ١٣ ج٢ نفسه
[٤] - ص١٣١ سير الأولياء

كان معه شيء من الفتوح للفقراء فافتح له وإلا فهي الزيارات فشارات. فقال له إنسان في ذلك، فقال: أعز ما عند الفقير وقته، وأعز ما عند أبناء الدنيا مالهم، فإن بذلوا لنا مالهم بذلنا لهم وقتنا"[1].

وللثياب دور هام في التسول، ولو تأملنا في شروط السمات الصوفية عند الغزالي، لرأينا أعظمها يهدف لصياغة الإنسان المتسول، حيث يقول: يجب على الصوفي "أن يلاحظ فيه خمس صفات: الصلاح والفقر وزي الصوفية وأن لا يكون مشتغلاً بحرفة- ويتناقض أن يقال صوفي تاجر وصوفي عامل"[2]، فالمرقعة برأي الشاذلي تقول: "أنا فقير إليكم فأعطوني"[3].

والتظاهر بالعجز والذل إضافة إلى الثياب المرقعة من الأشياء الضرورية لاستدرار عطف الناس وحثهم على العطاء، والشيخ أحمد الرفاعي يقول مخاطباً مريده المتسول: "انظر إلى النخلة لما رفعت رأسها جعل الله تعالى ثقل حملها عليها ولو حملت مهما حملت، وانظر إلى شجرة اليقطين لما وضعت نفسها وألقت خدها على الأرض جعل الله

[1] - ص٦٦ ج٢ الطبقات الكبرى
[2] - ص١٥٣ ج٢ إحياء علوم الدين
[3] - ص٢٠١ لطائف المنن

حملها على غيرها، ولو حملت لا تحس به. وكان يقول: أخوك الذي يحل لك أكل ماله بغير إذنه هو الذي تسكن نفسك إليه"[1].

أما ابن عجيبة فقد اجتهد لفلسفة إلحاح المتسول قائلاً: "وأما ما يفعله بعض أصحابنا من صورة الإلحاح – في السؤال – فإنما قصدهم بذلك قتل نفوسهم بما يسمعون من المسؤول في جانبهم، ولا يفعلونه إلا مع من يعرف عندهم بالإنكار، فيستخرجون منه الجلال اختباراً بأنفسهم، وقد يقصدون بذلك تحقيق الإخلاص وستراً للحال، فيظهرون الرغبة وهم من أزهد الناس تحقيقاً للاكتفاء بعلم الله وما كان ذلك – الإلحاح – إلا في حال قوتهم وجذبهم فالسكر غالب عليهم"[2]. فالإلحاح المؤدي إلى شتم صاحبه هو إذن نوع من أنواع الرياضات الصوفية التي بها قهر النفس أو هو لاستخراج أسماء الجلال الإلهية من المسؤول امتحاناً لصبر المتسول على الإهانة، أو ستراً لأحوالهم حتى لا يصاب بالغرور. والأطرف من ذلك كله كون المتسول اللحوح على حال الفناء والسكر وهذا يعني أن الإلحاح موجه إلى الله لا إلى المسؤول.

أما "الحريري" في مقامته "الصعدية" فقد انتصر للفضائل الصوفية حيث لم يجد عاراً في رد اليد الممدودة للمتسول قائلاً:

---

[1] - ص١٩٠ ج١ الطبقات الكبرى

[2] - ص٨٦ ج٢ إيقاظ الهمم

"وإن رُددت فما فـي الـرد منقصـة   عليك قد رُدَّ موسى قبل والخضـر" [1]

وأخيراً لا بد لنا من استعراض مجمل الآداب الصوفية في التسول حسب رأي الشيخ ابن عجيبة القائل: "السؤال – أو التسول – له آداب وهي كما يلي:

1 – أن يكون قصده – من التسول قوت الروحانية فقط - أي بجعله من جملة الرياضات التي بها قهر النفس – أو قوت الفقراء أو من تعلق به مع الاضطرار-.

2 – أن يكون – التسول – بإذن من الشيخ-.

3 – أن يكون المتسول – عند السؤال-. حافي الرجل عاري الرأس، فقيراً، ذليلاً، ينادي سيده متاع الله لله ويحضر قلبه المعرفة حين يقول الله.

4 – أن يكشف عن يده إلى الذراع ويمدها إلى نحو المسؤول وينظر إلى جهته-.

5 – أن يرى أن المعطي فيهم مولاك-. وعليه – أن لا يذم مانعاً ولا يمدح معطياً.

[1] - ص١٤٧ الخضر

ومن لم يكن عنده هذا العلم – علم التسول – تعلمه قبل الخروج إلى السؤال"[1]، وها هي حلقات التدريب التي من ضمن موضوعاتها علم الاقتصاد الصوفي أو فن التسول يدرِّسها المشايخ لمريديهم كل يوم!

6 – على المتسول ألا يسأل "من النساء ولا من الصبيان. ولا من أهل الذمة"[2].

أما المال المجموع أو الطعام الزائد عن الحاجة "فليتصدق به ليلاً. أو يرميه في موضع خال والأحسن أن يُنزل ذلك – الذي تم جمعه – في موضع ينتفع به الناس ولا يشعر به"[3] أحد.

---

[1] - ص١٤٠ ج٢ الفتح الإلهي
[2] - ص١٤١ نفسه
[3] - ص١٤١ نفسه

- وسائل التشجيع على الإنفاق:

التسول منبوذ شرعاً ومشروط، إلا أن المتصوفة لهم من الوسائل التي لا تحصى في دفع السذج إلى البذل والسخاء، فالمرابط كما يزعمون، أو المقيم في الرباط على طاعة الله يدفع الله به وبدعائه البلاء عن العباد والبلاد"[1]، ومن يعطيه أكثر فهو الآمن على نفسه من البلاء وهو الملتحق بنسب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو المطيع لربه ومهما فعل من الأفعال، "فإذا أكرمت الكرام البررة – كما يقول الجيلاني – في خلوتك أطعت مولاك ولم تعصه. فإذا صرت كريماً أكرم لأجلك ألف عين، يدفع البلاء عن أهلك وجارك وأهل بلدك أبد الدهر. وتكون أنجب أولاد محمد صلى الله عليه وسلم حتى يسلم إليك بركته"[2].

مقام أهل التصوف عند الله عظيم، فقد "باهى الله عز وجل بهم الملائكة، ويا طوبى لمن اتبعهم، وخفف عنهم أثقال الدنيا وأثقال العيال، قوم عندهم شغل شاغل عن الاكتساب – وشغلهم – القيام بمصالح الخلق، الخلق عندهم كالأولاد. وهذا الذي في يدك ليس لك بل هو مشترك. "وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه"[3]، "فإذا أطعمت طعامك للمتقي وساعدته في أمر دنياه كنت شريكه فيما يعمل ولا ينقص من أجره شيء

[1] - ص٨١ عوارف المعارف

[2] - ص٣٢٦ الفتح الرباني

[3] - ص٣١٣ نفسه

لأنك عاونته في قصده ورفعت عنه أثقاله، وأسرعت خطاه إلى ربه عز وجل"[1].

وبشر الحافي يقول: "إن الصدقة أفضل من الحج والعمرة والجهاد"[2]، والرفاعي يقول: "الصدقة أفضل من العبادات البدنية والنوافل"[3]، أما أبو يزيد البسطامي "سأله رجل فقال: دلني على عمل أتقرب به إلى الله، فقال: تحب أولياء الله وتحبب إليهم ليحبوك، فإن الله ينظر إلى قلوب أوليائه في كل يوم وليلة سبعين مرة، فلعله أن ينظر إلى اسمك في قلب ولي من أوليائه فيحبك ويغفر لك"[4]، وهل بغير الإنفاق يكون التحبب إلى أولياء المتصوفة، فبالإنفاق عليهم تكون المغفرة والمحبة، "فمن نظر إلى ولي من أولياء الله تعالى – كما يقول الجنيد – فقبله وأكرمه، أكرمه الله على رؤوس الأشهاد"[5]، وبرضاهم يكون رضى الله "وقيل: أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء عليهم السلام إن أردت أن تعرف رضاي عنك فانظر رضا الفقراء عنك"[6]، يقصد الصوفية، ومن أنفق أمواله على المشايخ أعطاه الله "ما لا عين رأت ولا إذن سمعت، ولا

---

[1] - ص١٥٧ نفسه
[2] - ص١٤٦ دراسات في التصوف الإسلامي
[3] - ص١٤١ ج١ الطبقات الكبرى
[4] - ص١١٥ النور من كلمات أبي طيفور
[5] - ص١٦٢ طبقات الصوفية
[6] - ص١٢٥الرسالة القشيرية

خطر على قلب بشر، وجعله من العارفين"[1]، وبالإنفاق على الصوفي تكون الشفاعة يوم الدين، فالعلماء المتصوفة كما يقول الغزالي في قدسياته عن الله عز وجل "هم عندي كأنبيائي، اشفعوا فيمن تشاؤون فيشفع العالم في أهل بيته وجيرانه وإخوانه ويأمر كل واحد منهم ملكاً ينادي في الناس ألا إن فلاناً العالم قد أمره الله أن يشفع فيمن قضى له حاجة أو أطعمه لقمة أو سقاه شربة ماء حين عطش فيقوم إليه من فعل معه شيئاً من ذلك فيشفع له"[2].

واعلم أيها الإنسان أن قيمتك عند الله على الحقيقة ليست إلا ما أنفقته على الصوفي، وابن عربي يقول: "رأيت سائلاً يسأل شخصاً بوجه الله أو بحرمة الله عندك أعطني شيء ومعي عبد صالح يقال له مدوَّر من أهل أسبجة ففتح صرة فيها قطع صغار وكبار، فأخذ يطلب على أصغر ما فيها من القطع. فقال لي العبد الصالح: أتدري على ما يطلب؟ قلت له: قل. قال: على قيمته عند الله وقدره. فكلما أخرج قطعة كبيرة يقول بلسان الحال: ما تساوي مثل هذه عند الله، فأخرج أصغر ما وجد فأعطاه إياها"[3].

ولن يتوانى ابن عربي بالمقابل عن تأليه المنفق حيث يقول: "إذا استطعمك أحد من خلق الله أو استسقاك فأطعمه واسقه. إن هذا المستطعم

---

[1] - ص٨٤ ج٢ الإبريز

[2] - ص١٦٢ سر العالمين

[3] - ص٥٩٩ ج١ بـ٧٠ الفتوحات المكية، ص٢٧ ج٢ بـ٧٣ نفسه، ص٤٩ ج٤ بـ٤٣٧ نفسه

و المستسقي قد أنزلك منزلة الحق الذي يطعم عباده ويسقيهم. انظر إلى السائل إذا سأل ويرفع صوته يقول: يا لله اعطني، فما نطَّقه الله إلا باسمه في هذه الحال وما رفع صوته إلا ليسمعك أنت حتى تعطيه فقد سماك بالاسم الله والتجأ إليك برفع الصوت التجائه إلى الله، ومن أنزلك منزلة سيده فينبغي لك أن لا تحرمه"[1].

الاحتجاج والإنكار على المتسول يؤدي إلى عقاب المنكر، وشيخ الطائفة الجنيد مثلاً يعاقب حتى على الإنكار بالسر قائلاً في ذلك: "فرأيت فقيراً عليه أثر النسك يسأل الناس فقلت في نفسي: لو عمل هذا عملاً يصون به وجهه أو نفسه كان أجمل به، فلما انصرفت إلى منزلي وكان لي شيء من الوِرد بالليل حتى البكاء والصلاة وغير ذلك، فثقل عليَّ جميع أورادي، فسهرت وأنا قاعد فغلبتني عيناي فرأيت ذلك الفقير جاؤوا به على خوان ممدود وقالوا لي: كل لحمه فقد اغتبته"[2]، وفي اليوم التالي ذهب الجنيد مفتشاً عن الفقير الذي اغتابه ولما رآه الفقير قال له: "لا تعد إلى مثلها يا أبا القاسم"[3]. وهل لأحد أن يحتج على المتسولين بعدها وها هو المتسول أعظم مكانة من شيخ الطائفة نفسه.

---

[1] - ص٤٥١ ج٤ بـ٥٦٠ نفسه
[2] - ص٧٤ الرسالة القشيرية
[3] - ص٢٢٤ الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم

ولكن لا بد من العقاب لمن يؤذي المتسولين أو لمن لم يعطهم، فجد الشيخ مدين الأشموني كان قد جاع "جوعاً شديداً فمرَّ به إنسان يقود بقرة حلابة، فقال له: احلب لي شيئاً من اللبن أشربه، فقال له: ثور! فصارت في الحال ثوراً ولم تزل إلى أن ماتت"[١]، والشيخ أبو الحجاج المغاور يسأل خادم المطبخ، وعندما لم يلتفت إليه قائلاً: "أنا مشغول ومضى، انقطع صوته للوقت وانبح وصار إذا أراد الكلام لا يقدر"[٢]، والشيخ شمس الدين الحنفي كان إذا كتم أحد شيئاً عنه من ماله يذهب ذلك المال الذي كتمه كله ولا يبقى معه إلا المال الذي يعترف به"[٣]، وللدباغ كرامات تسمح له بمعرفة ما في جيوب الناس من أموال وأخذها دون علمهم ولا مجال عندها للإنكار والكذب أو الشح، وفي ذلك يقول: "إن الولي صاحب التصرف يمد يده إلى جيب من شاء، فيأخذ منه ما شاء من الدراهم، وذو الجيب لا يشعر. لأن اليد التي يأخذ بها الولي باطنية لا ظاهرية"[٤]، وقد جرد الدباغ على سبيل المثال رجلين هما محمد بن علي"[٥]، وعلي بن عبد الله الصباغي"[٦] من معظم أملاكهما قبل موتهما بحجة بناء القصور لهما في الجنة!

---

[١] - ص١٠١ ج٢ الطبقات الكبرى

[٢] - ص٨١ سير الأولياء

[٣] - ص٩٩ ج٢ الطبقات الكبرى

[٤] - ص٤٢ ج٢ الإبريز

[٥] - ص٤٢ ــ ٤٣ نفسه

[٦] - ص٤٤ نفسه

وإن قلت ما الفرق عندها بين النشال والولي الصوفي، طالما اتفقا في أخذ أموال الناس من جيوبهم دون علمهم؟ يقول الدباغ: لا، فالفرق كبير وعظيم واحذر الغلط، فالولي بسرقته هذه مشاهد لربه مأمور من قِبله بالأخذ، قال الله تعالى "وما فعلته عن أمري""[١]، أو أنه رآها – أي تلك الأموال – في اللوح المحفوظ من قسمته، وسمع الأمر من الحق سبحانه بأخذها، ولهذا يحل له الأخذ كيفما أمكنه"[٢]، ولو بالسلب والنهب دون أن تعد فعلته هذه سرقة محرمة بل بالعكس لأنها كرامة من لدن الله، ومن قال بغير ذلك فقد عادى الله القائل: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب!

وللتشجيع على الإنفاق عليهم أيضاً قالوا أن السخاء على متسولي التصوف ينجي من عذاب القبر من منكر ونكير، فقد "دفع أبو يزيد فروة إلى خياط ليصلحها، فخاطها وحملها إليه: فلما مات رؤي في المنام وسئل: كيف كان حاله عند السؤال؟ - عند سؤال منكر ونكير – فقال: جاء – الملائكة – فقالوا: من ربك؟ فقلت: ألمثلي يُسأل عن هذا وأنا قد حملت فرو أبي يزيد على عاتقي! فقال بعضهم لبعض: تعالوا نذهب! فلا يجيء من هذا شيء"[٣]. وهكذا أصبح قبر الرجل روضة من رياض الجنة!

---

[١] - ص٤٤ ج٢ نفسه
[٢] - ص٤٤ – ٤٥ نفسه
[٣] - ص١٧٩ – ١٨٠ النور من كلمات أبي طيفور

الصوفي يعوض لأهل السخاء أموالهم فلا خشية عليهم من الإنفاق، والشيخ أبو جعفر الحداد يقول: ذهبت إلى الحلاق، وقلت له تأخذ شعري لله تعالى! فقال: نعم وكرامة"[1]، وأعطاه فوق ذلك بعض الدراهم، إلا أن الشيخ كان قد نوى في سره أن يعطي الحلاق أول فتوحه، وكان له ثلاثمائة دينار جاءوه بصرَّة من مجهول فأعطاها للحلاق. فلن يخسر صاخب السخاء أبدا والصوفي في سخائه مضرب المثل، ويروي ابن عجيبة قائلاً: ولشيخ شيخنا حكاية: "وذلك أن أهله صنعوا طعاماً جيداً، فلما وضعوه بين أيدهم وإذا بسائل يسأل فأخرجه له الشيخ كله، وبقي أولاده بغير عشاء، فلما كان بعد العشاء وإذا برجل يدق الباب، فخرج الشيخ فوجد رجلاً معه مائدة فيها ألوان من الطعام فأدخلها لعياله رضي الله عنه"[2].

وربما أن المتصوفة يستخدمون ملكتهم في التخاطر التي يتمتعون بها لتسخير الناس كما يرغبون، وهذه الأمور مألوفة حتى عند الوسطاء الروحيون في العصر الحديث، إلا أن من استخدم ملكاته لهكذا أغراض يعتبر من وجهة النظر الخلقية مشعوذاً لا صلة بينه وبين الأخلاق.

السخاء على متسولي التصوف يؤدي إلى تحصيل الكرامات، فمن أسباب تحصيل كرامة المشي على الماء مثلاً كما يقول ابن عربي، إطعام

---

[1] - ص١٦٣ الرسالة القشيرية

[2] - ص٨٨ ج٢ إيقاظ الهمم

"الطعام وكسي العراة من ماله أو بالسعي عليهم"[1]. وهل تقاس الكرامة بالأموال والدراهم.

ومن شدة حرص ابن عربي على ضرورة الإنفاق شكك في لدنية معارف الذين يمنعون الناس من الإنفاق على المتسولين، أو بمن يتخذون لدنية المعارف حجة على عدم إعطاء المتسول الصوفي. فأحد أصحاب الكشف كان من هؤلاء "فإن قيل له واسه – أي اعطي المتسول – فيقول: حتى يخطر لي، ما يلقي الله عندي فيه شيئا. هذا الرجل كما يقول ابن عربي – ما أجهله بخواطر الحق"[2]. فإياكم والزعم بأن الله لم يكشف لكم في اللوح المحفوظ عن قسمته لديكم، أو الزعم بأن الله منعكم بالإلهام أو الأمر من الإنفاق على الصوفي المتسول فذلك كله سلفاً من المزاعم الكاذبة.

---

[1] - ص١٢٥مواقع النجوم

[2] - ص٩٢ روح القدس في محاسبة النفس

ـ الصوفي يأكل بالكرامة:

الصوفي يمد يده متسولاً يسأل الناس أن يعطوه، ليس لأنه عاجزاً عن طعامه وشرابه، وإنما قهراً لنفسه الأمارة بالسوء يتسول، أو ليمنَّ على المنفقين ليدفع عنهم البلاء والوباء وينجيهم من عذاب القبر أو ليعطيهم القصور في الجنان، وكيف له أن يحتاج إلى الناس وهو القادر على جلب طعامه وشرابه بالكرامة؟ وما أكثر كرامات القوم التي حاولوا بها الحفاظ على ماء وجوههم.

الشيخ عامر بن قيس كان له ركوة "أو طاسة" يصطحبها في سفره وسياحاته "فإذا شاء صب منها ماء يتوضأ للصلاة وإذا شاء صب لبناً يشربه"[1] وامرأة صوفية سائحة على التوكل في البادية ولما أعطاها أحد الرجال شيئاً من الدراهم لتستعين بها في قضاء حوائجها رفضت "وقالت بيدها هكذا! في الهواء، فإذا في كفها دنانير. فقالت: انت أخذت الدراهم من الجيب، وأنا أخذت الدنانير من الغيب"[2]، وإذا أراد الشيخ عبد الواحد بن زيد الدنانير فليس له إلا الدعاء فتتنزل إليه من السقف وهكذا كان يفعل"[3]، وإذا احتاج الشيخ أبو تراب النخشبي للماء فإنه يضرب الأرض

---

[1] ـ ص١٦٩ الرسالة القشيرية
[2] ـ ص٧٨ نفسه
[3] ـ ص١٧٠ نفسه

بقدمه فيخرج له الماء الزلال وإذا ضربها بيده خرج له قدحاً من باطنها ليكون بين يديه"[1].

الصوفي كما يزعم لا يأخذ من أحد طمعاً قط، وفقره الذي كرَّمه الله به أفضل لديه من الذهب والفضة وأبو بكر الكتاني يقول: "كنتُ في طريق مكة في وسط السنة فإذا أنا بهميان ملآن يلتمع دنانير فهممت أن أحمله لأفرقه على الفقراء، فهتف بي هاتف إن أخذته سلبناك فقرك"[2]. ففقره أعظم من الدنانير ومن أكل بالكرامة فلا حاجة له بها!

الصوفي كما رأينا لا يحب العمل ولا عمل له إلا العبادة كما يقول، وأحدهم يصلي في الجبانة فقط "فيؤمِّن إطعام أهله"[3]، وفي ظنه أن هذا كرامة له! ولما خرج الشيخ ابن الرومي لتأمين قوت عياله بعد أن ألم بهم الجوع الشديد، ذهب إلى المسجد لا ليبحث عن العمل "فبقي يصلي يومه كله، ولما رجع إلى البيت رأى فيه مائدتين عظيمتين. ذلك أن طارقاً عليه حلتان خضراوان دفع لزوجه جرة فيها ألف دينار قائلاً: قولي لبعلك: مولاك يقرؤك السلام، ويقول لك زدني العمل – أي العبادة – أزدك في الأجرة. وهذا عشاؤه"[4].

---

[1] - ص١٦٩ نفسه

[2] - ص١٦٩ نفسه

[3] - ص١١٧ الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم

[4] - ص١١٧ نفسه

ولو تأملنا جيداً في مهام الخضر الرئيسية في الفكر الصوفي لرأيناها متمثلة في إطعام جياع المتصوفة، فأحدهم مثلاً يأتيه الخضر "بأكلة سكباج كان يشتهيها منذ ثلاثين سنة وهو يمنعها"[١] عن نفسه. وآخر يقول نمت جائعاً فأتى آت في منامي "فقال لي: اذهب إلى موضع كذا- وعين الموضع، فثمَّ خرقة زرقاء فيها قطيعات "نقدية" اخرجها في مصالحك"[٢].

وجاع أحد المتصوفة ذات مرة حتى أشرف على الهلاك، وبعدها قال: "فبينا أنا كذلك إذ جاءني شاب متقلد بسيف وحركني- فقال لي: اشرب- وقال: كل، فأكلت"[٣] وشربت. وعندما تمنى كما يروي القشيري أحد المتصوفة الشواء إذ بضبي يأتيه "جاثياً"[٤]، أما الرفاعي فقد أتاه الأوز المشوي من السماء!

إلا أن الشعراني وهو من أهل الطريق يرى أن هذه المزاعم ليست إلا وسيلة يستخدمها أصحاب التسول حفاظاً على ماء وجوههم التي أراقوها في تسولهم قائلاً: "فإن كان ولا بد من قبولك الرفق – أو عطايا التسول من الإخوان المتقدمين فاحذر أن توهمهم أنك قادر على الأكل من

[١] - ص١٦٢ نفسه
[٢] - ص٩٩ عوارف المعارف
[٣] - ص٩٩ نفسه
[٤] - ص١٦٢ الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم

الغيب وأنك قادر على قلب الأعيان ولكن تركت ذلك أدباً"[1]، فإياك إياك واحذر التدليس على المشايخ وأهل الطريق إن تسولت منهم، ولكن لا بأس بذلك مع العوام الذين يجهلون أمثال هذه الأسرار.

---

[1] - ص١٤ ج٢ الطبقات الكبرى

- **الشرع الإسلامي والتسول:**

التسول ليس ظاهرة إسلامية قطعاً، وإن كان ولا بد فهو مشروط بالهلاك المؤدي إلى تلف النفس ما دام الهلاك قائماً فقط، وبعد نفاذ الأسباب كلها فليس يحق للمسلم احتراف التسول، فالعمل أولى بالمؤمن وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم كما ورد في الصحيحين: "والذي نفسي بيده، لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره، فيتصدق على الناس خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله، أعطاه أو منعه" إلا أن المتصوفة قد أجمعوا على عدم اللقاء بين الحرفة مهما تكن والتصوف.

ولقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم كما روى البخاري: "اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول" كما أجمع المفسرون على أن اليد العليا هي المعطية والسفلى هي الآخذة، وفي البخاري ومسلم ورد أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم: "ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم"، وفي صحيح مسلم يقول أيضاً: "من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمراً. فليستقلل أو يستكثر".

الإيمان والتسول في شريعة الإسلام لا يلتقيان ولقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك: "إن من أمتي من لا يستطيع أن يأتي مسجده أو مصلاه من العري يحجزه إيمانه أن يسأل الناس"[١].

---

[١] - ص٤١١ الزهد

والتابعون أيضاً نفروا من ظاهرة التسول، وسفيان الثوري رحمه الله يقول: "أحب لطالب العلم أن يكون في كفاية- لأن أخلف عشرة آلاف دينار أحاسب عليها، أحب من أن أحتاج إلى الناس"[1]، والدكتور زكي مبارك يقول معلقاً على ظاهرة التسول في التصوف: "إن الجنة وما فيها من خير ونعيم لا تساوي ذلة السؤال، والله لم يخلقنا لنسأل الناس، وهو لم يمنحنا العقل والعافية إلا لنستعبد خيرات الأرض ونستغني عن المخلوقين"[2].

أما الفقهاء فقد شددوا بما أملتهم عليهم أدلة الشرع والعقيدة الخناق والنكير على التسول وأصحابه وأحدهم على سبيل المثال يقول: "سؤال المخلوقين فيه ثلاث مفاسد: مفسدة الافتقار إلى غير الله وهي نوع من الشرك. ومفسدة إيذاء المسؤول وهي نوع من ظلم الخلق، وفيه ذل لغير الله وهو ظلم للنفس"[3]، ويقول ابن القيم الجوزية على نفس المنوال: "والمسألة في الأصل حرام، وإنما أبيحت للحاجة، لأنها ظلم في حق الربوبية، وظلم في حق المسؤول، وظلم في حق السائل"[4]، ويرى أن الشروط التي تبيح التسول كما حددها الرسول صلى الله عليه وسلم هي: "عند تحمل الرجل حِمالة أو إذا أصابته جائحة، أو إذا ابتلي بفقر يشهد له

[1] - ص٩٥ دراسات في التصوف الإسلامي
[2] - ص١٣٣ ج٢ التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق
[3] - ص٤٦ قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة
[4] - ص٢٣٢ ج٢ مدارج السالكين

ثلاثة من ذوي الحجى"[1]، ولا يجوز التسول بعد هذا كله حتى لمن اجتمعت فيه كل هذه المبررات إلا بعد نفاذ كل الأسباب المشروعة عن نفعه، بل ولا تسول بالأصل لمن قذف الأسباب بعيداً منذ البدء وما هي حجة له.

[1] - ص١٣٣ نفسه

ـ التسول مشروع:

الفقهاء أو أهل الظاهر ليسوا بحجة على العارفين أهل الحقيقة والباطن ومهما أتوا بالبراهين الشرعية، فللباطن شرع وللظاهر شرع ولكل منهما أهله وفرسانه وأحكامه، فأهل الظاهر يرون المتسول يسأل الناس، أما إن فني عنهم حسب أهل الباطن أو إن فني الخلق بناظريه فإنه عندها يسأل الله القائل أسألوني أو "ادعوني أستجب لكم" فالمسلم حسب رأيهم مأمور بالتسول مكلف به، وها هو شاعر أهل الله يقول:

"إذا مددت الكف ألتمس الغنى　　　إلى غير من قال اسألوني فشُلّت" [1]

واعلم أيضاً أيها المحجوب بأن الله هو الآمر عبده بالتسول، ولا خروج لمتسول صوفي إلا بأمر الله، فإذا أمر الشيخ مريده بالتسول فليس هذا على الحقيقة إلا أمراً إلهياً، فسبحانه وتعالى هو الآمر عبر الشيخ لا سواه، ولا حق للمريد في الاعتراض على أمره، "فمن آداب المتسبب – حسب ابن عجيبة – إقامته فيما أقامه الحق تعالى فيه من فعل الأسباب حتى يكون الحق تعالى هو الذي ينقله على لسان شيخه"[2]. من الأسباب أو العمل والحرفة إلى الفتوح أو من الفتوح إلى التسول، وها هو أيضاً من جهة أخرى الشيخ عبد القادر الجيلاني لا يأكل من تسول المريدين

---

[1] - ص١٤٢ ج٢ الفتح الإلهي
[2] - ص١٤ ج١ إيقاظ الهمم

وفتوحهم إلا إن أمره الله بذلك، فالله هو المحلل له ما يأكل، وفي ذلك يقول: "لا آخذ منهم لقمة إلا بعد رؤية الحق وإلا حلفت أن لا آكل ولا أشرب"[١]، فالصوفي لا يأكل إلا حلالاً طيباً، والفتوح من أطيب ما يأكل "وتيقن أن الله قادر أن يرزقك من غير سعي وبطش"[٢].

فإذا كان الصوفي مأموراً من الله في تسوله، وإذا كان انتظاره للفتوح دلالة على قوة اليقين بالله، فهل رفض الفتوح والتسول عندها إلا إنكاراً لأوامر الله وهل للمنكر إلا العقاب؟ والشيخ علي بن محمد المزين "يقول: إذا عرض على أحدكم طعام من حيث لا يحتسب – أي بالفتوح – فليأكله فإني عُرض علي مرة طعام فامتنعت من أكله، فضربت بالجوع أربعة عشر يوماً، حتى إذا علمت أني قد تبت إلى الله"[٣]، ومظفر القرميسيني يرى أن "خير الأرزاق ما فتح الله لك به من وجه حلال من غير طلب ولا سعي"[٤]، فخير الأرزاق الرزق من الفتوح حتى أنها أفضل من رزق الطيور المشغولين بالغدو والعود.

أهل الظاهر يحتجون لتحريم التسول بالرسول صلى الله عليه وسلم أو بما وصل إليهم من ظاهر أقواله، ولكن الرسول على الحقيقة هو الآمر للصوفي بالتسول، فالشيخ أبو المواهب الشاذلي يقول: "رسول الله صلى

[١] - ص٣٠٦ الفتح الرباني
[٢] - ص٣٣٠ – ٣٣١ نفسه
[٣] - ص ١١٢ ج١ الطبقات الكبرى
[٤] - ص١١٣ نفسه

الله عليه وسلم أمرني أن أطلع إلى السلطان جقمق وأسأله من الدنيا شيئاً. فطلعت له فأعطاني مائة دينار"[1]، وهو نفسه يأتينا بشهادة من الرسول بولاية امرأة تتسول عن طريق الغناء في مديح الرسول على الأبواب قائلاً: "رأيت امرأة بمصر تدور على الأبواب وهي تغني في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم فسألت النبي صلى الله عليه وسلم عنها فقال: هي ولية كبيرة"[2]. إلا أن الغناء بغض النظر عن النساء إسلامياً مسألة فيها نظر، فما بالك بغناء النساء على الأبواب للتسول ولكنها تعاليم رسول الباطن لا تعاليم ظاهر الشريعة!

التسول سنة الأنبياء، فما بالكم تنكرون على أهل الله في تسولهم، والشيخ ابن البنا يقول:

"إذا كان خير الخلق في أترابه   يسأل أحياناً إلى أصحابه"

وهل السنة إلا في اتباعه صلى الله عليه وسلم؟

ولما لم يجد المتصوفة متسولاً من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ليحشدوه ضمن البراهين التي تتيح لهم التسول، اكتفوا بالمنامات التي بها تسخير الصحابة لأمثال هذه الأغراض، فالإمام علي بن أبي

[1] - ص٧٤ ج٢ الطبقات الكبرى
[2] - ص٧٤ نفسه

طالب رضي الله عنه على سبيل المثال يقول في الرؤية للشيخ بشر الحافي: "ما أحسن تيه الفقراء على الأغنياء ثقة بالله ولله"[1].

وليس الله ورسوله والصحابة والتابعين هم الذين أباحوا التسول للصوفي فحسب، وإنما الخضر والملائكة قد أباحوه أيضاً فالشيخ إبراهيم بن أدهم يقول: "اجتمعت بالخضر عليه السلام فقدم لي قدحاً أخضر فيه رائحة السكباج. فقال لي: كل يا إبراهيم فرددته عليه. فقال: إني سمعت الملائكة تقول: من أعطي فلم يأخذ سأل فلا يُعطى"[2]. فعلى الصوفي إذن أن يأكل ما يُعطى ليعطي إن سأل، وبذلك يكون الخضر بما سمعه عن الملائكة قد أفتى بمشروعية التسول.

وللتسول أسراراً إن عرفتها فسوف تبيحه قطعاً، ولما كانت الدراهم مثلاً زمن الدباغ، منقوشة بالأسماء الإلهية، ولما كان لكل حرف من الأحرف ملك حسب اعتقاده، جعل من المتسولين أئمة التحرير لهؤلاء الملائكة من قبضة الأغنياء المنقطعين عن الله وفي ذلك يقول: "فإذا جاء من هو متعلق بربه – يقصد الصوفي المتسول – واحتال على تلك الدراهم بالطلب – أي بالتسول أو غيره – كأخذهم من الجيوب دون علم أصحابها بالكرامة أو السرقة – حتى أخذها من ذلك المنقطع – عن الله – فقد أنقذ ملائكة كراماً على الله عز وجل، وذلك أن على كل حرف من

---

[1] - ص١٤١ – ١٤٢ ج٢ الفتح الإلهي

[2] - ص٧٦ ج١ الطبقات الكبرى

أسمائه تعالى ملكاً، وعلى كل اسم من أسمائه تعالى ملكاً. فما دامت الدراهم التي فيها الأسماء عند ذلك المنقطع، فإن كل ملك من أولئك الملائكة يكون بمنزلة طائر، قد أخذ وكتف وأخرج رأسه من تحت جناحيه، فإذا جاء المتعلق بالله – أو الصوفي – وأخذه بحيلة من الحيل، فإن الملك يحصل له فرح وسرور، ويزول ما به من الضيق لكراهته لأهل الانقطاع"[١]. وهل أعظم عند الله من تحرير ملائكته وأسمائه من آسريهم فهي شريعة الحرب إذن وكل شيء في سبيل النصر جائز، ولا فرق حينئذ بين الأولياء واللصوص، وللقوم تأويلاتهم الخاصة في براهينهم على شرعية التسول "فالشيخ جعفر الخالدي يذكر تأويلاً لبعض المشايخ لقول الرسول صلى الله عليه وسلم "أحل ما أكل المؤمن من كسب يده" بأنه المسألة عند الفاقة"[٢]، فالتسول برأيه من أحل دروب الكسب، إنه سنة المؤمنين، وأي كسب لطعام يوضع في اليد بغير التسول؟ فعندها وعندها فقط يكون الكسب باليد!

أما الغزالي وبعد أن استعار من الفقهاء لسانهم يقول: فإن قلت ما قولك في القعود في البلد بغير كسب، أهو حرام أو مباح أو مندوب؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام. بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب. ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليه ففعله ذلك

---

١ - ص٤٨٤ ج١ الإبريز

٢ - ص٩٩ عوارف المعارف

حرام، وإن فتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له، ولكن ليس فعله حراماً إلا أن يشرف على الموت. فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب-. فإن العبد لو هرب من رزقه لطلبه، كما لو هرب من الموت لأدركه"[١].

ومن الجدير بالذكر أن فتواه هذه قد جاءتنا بمعرض حديثه عن التوكل ولكن على من يتوكل هذا الذي فتح خلوته أو بيته قابعاً فيه منتظراً الناس أن يتصدقوا عليه بما يلزمه من طعام وشراب، أليس توكله عندها على الناس من دون الله وإلا لوجب أن يغلق بابه عن المارة والخلق أجمعين. أما إن أشرف هذا الصوفي المرابط على الانتظار على الهلاك فعليه بالخروج للتسول الذي أصبح مشروعاً له وإلا فهو آثم وبعيد عن الله!

أما ابن عجيبة فيقول صراحة: "أما حكم السؤال – أو التسول – فأصله جواز. قال الله تعالى: "وأما السائل فلا تنهر" فلو كان ممنوعاً ما نهى الله عن نهره"[٢]، واعلم أيضاً – أن السؤال أصله في الشريعة الجواز – وقال عليه السلام: اعط السائل ولو على فرسه"[٣]، وهو في التصوف واجب فقد "أوجبته الصوفية أيضاً على من خاف فوات حياة

[١] - ص٢٦٧ ج٤ إحياء علوم الدين
[٢] - ص٨٤ ج٢ إيقاظ الهمم
[٣] - ص١٣٥ ج٢ الفتح الإلهي

الروحانية"[1]، "فهو لرياضة النفس واجب أو مندوب"[2]، فالرياضة من أهم المصادر التشريعية في التصوف، فالتسول لقصد قوت الأرواح ليس بحرام"[3]، أما من حيث أن التسول مندوب، فيقول: "وأما المندوب فهو أن يسال لغيره فهو من التعاون على البر، فيسأل الطعام ليطعمه من يستحي – كالمشايخ مثلاً – أو يسأل اللباس أو غير ذلك. وأما المنقطع إلى الله فلا بأس به وقد فعله كثير من العارفين المحققين. مثل أبو جعفر الحداد. أبو سعيد الخراز. ابراهيم بن أدهم"[4].

فالتسول جائز بالأصل الشرعي ولا حرام فيه، وهو واجب لمن يئس من مجيء الخلق إليه بالفتوح وواجب أو مندوب للرياضات التي بها تربية النفس أو الروح، وهو مندوب إن كان في سبيل الآخرين، ومستحسن إن فعله العارفون والأكابر. أما الشيخ المعافري فيراه "واجب على المريد في البداية"[5] فقط، وإذا ما أصبح شيخاً فالمريدين عندها سيتسولون له، وتلك هي شريعة الباطن!

---

[1] - ص٨٤ ج٢ إيقاظ الهمم
[2] - ص٨٥ نفسه
[3] - ص٢٧ ج١ نفسه
[4] - ص٨٥ ج٢ نفسه
[5] - ص٨٥ نفسه

الصوفي يهرب من العمل، يهرب من الحرفة ليحتفظ بورعه قائلاً: "ربما خبزت خبزاً فأكله عاصٍ"[1]، فأكون قد أعنته على العصيان، "واين الحلال حتى نطلبه"[2]، فليس من أمان على الورع لمن طلبه إلا بالتسول، وخير الطعام وأزكاه ما كان عنه!

[1] - ص٢٨٧ تلبيس إبليس
[2] - ص٢٨٦ نفسه

ـ التسول والرياضات:

الرياضات من مصادر التشريع الرئيسية في التصوف، شأنها في ذلك شأن الكتاب والسنة والإجماع وغير ذلك عند الفقهاء، وكل ما يعارضها فللصوفي أن يضرب به عرض الحائط غير آبه بمصدره أياً كان، فالتسول مباح إن تم ربطه بالرياضات "وأما المباح – في التسول – فهو ما إذا سأل – أو تسول – اختباراً لنفسه هل تقدر عليه أم لا"[1]. فكل ما يؤدي إلى قهر النفس وإذلالها فهو مباح، بغض النظر عن أحكام أهل الظاهر وشرعهم، "فأصل مشروعيته قتل النفوس لا قبض الفلوس، فمن استعمله لقتل النفوس ولج حضرة القدوس"[2]. فالتسول في شريعتهم من الدروب الموصلة إلى الله، وبه يتقربون إليه سبحانه وتعالى، فهو واجب إن قصد به التغلب على كبر النفس التي "لا يمكن دواؤها إلا به"[3]، وهو مندوب "إذا ثقل عليها وجمحت منه"[4]، حتى أن الشيخ عبد الله بن منازل جعل من التسول الحد الفاصل بين الخير والضياع قائلاً: "لا خير فيمن لم يذق طعم إجابة الرد"[5]، "فلا خير فيمن لم يذق ذل المكاسب، وذل السؤال، وذل الرد"[6]. فلا خير قبل التسول، وكل الخير يكون بعده!

---

[1] - ص١٣٥ ج٢ الفتح الإلهي
[2] - ص٨٦ ج٢ إيقاظ الهمم
[3] - ص١٣٦ نفسه
[4] - ص١٣٦ نفسه
[5] - ص١٣٧ ج٢ الفتح الإلهي
[6] - ص٣٦٧ طبقات الصوفية

أما الشيخ عبد القادر الجيلاني فيرى أن حجة الرياضات لإباحة التسول "لا تدوم"[1]، فهي للمريدين بمراحلهم الأولى فقط، وقد كان "سيدي محمد رضي الله عنه يأمر من يراه من أصحابه عنده شهامة نفس بالشحاتة من الأسواق وغيرها حتى تنكسر النفس ويقول رحم الله من ساعد شيخه على نفسه"[2]. ففي التسول رياضة ومنفعة، فهو من الجهاد الأكبر في سبيل المشايخ ""والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا" فكل ما يثقل على نفس المريد وتنفر منه فهو حق- يثقل عليها السؤال وتموت منه"[3]، فعليها بالتسول وعلى الشيخ إن رأى المريد "ذا جاه ورياسة أمره بالخراب والسؤال"[4] أي خراب النفس، والمشايخ الذين لا يكفيهم تسول المريدين، يتسولون إن لمسوا الكبر في نفوسهم، والشيخ علي الكازروني الذي لمس احترام وحب الناس له يقول: "فتظاهرت بحب الدنيا وسؤالي لهم من الصدقات، ففروا عني فاسترحت"[5]، والمولَّه أحمد كان "يتعرض بالسؤال نوعاً من التستر"[6]، ومن الأولياء "من يكون ستره كثرة التردد إلى الملوك والأمراء والأغنياء وسؤالهم الدنيا"[7]، "ومن الأولياء من يكون ستره قبوله من الخلق ما يعطونه له من الهدايا والصدقات. فإن الرجل إذا

---

[1] - ص٣٣٤ الفتح الرباني
[2] - ص٩٠ ج٢ الطبقات الكبرى
[3] - ص٨٩ ج٢ إيقاظ الهمم
[4] - ص١٧٩ ج١ الفتح الإلهي
[5] - ص١٨٠ ج٢ الطبقات الكبرى
[6] - ص١٣٣ سير الأولياء
[7] - ص٨ ج١ الطبقات الكبرى

قبل من الخلق صغر في أعينهم ضرورة، كما أن من ردَّ عليهم كبر في أعينهم- وقد قال الفضيل بن عياض رحمه الله: من طلب الحمد من الناس بتركه الأخذ منهم فإنما يعبد نفسه وهواه وليس من الله في شيء"[١]، وقد حدث أن "أرسل عصام بن يوسف رحمه الله شيئاً إلى حاتم، فقيل له: لم قبلته؟ فقال: رأيت أن في قبوله ذل نفسي وفي رده عزها"[٢]، والذل أولى، أما الشاذلي "فلا يسأل، ولا يرد، ولا يدخر"[٣]، فهو لا يدخر وإلا امتنع الناس عن إعطائه ولا يرد من يأتيه بالفتوح. إلا أن بشر الحافي يرى أن هذا الأسلوب لا يليق إلا لأواسط القوم، وهذا لا يرضاه الشاذلي، وفي ذلك يقول: "اعلم أن الفقراء ثلاثة: فقير لا يسأل وإن أعطي لا يأخذ فذاك من الروحانيين، وفقير لا يسأل وإن أعطي قبل فذاك من أوسط القوم، وفقير اعتقد الصبر ومدافعة الوقت، فإذا طرقته الحاجة خرج إلى عبيد الله وقلبه إلى الله بالسؤال. فكفارة مسألته صدقه في السؤال"[٤].

التسول الصوفي تسول مقدس، إنه من أجل التعاون على البر، إنه من أجل الفقراء، إنه من أجل قهر النفس، إنه من أجل الوصول إلى الله سبحانه وتعالى والتقرب إليه، إنه من أجل ستر الأحوال، إنه لتحصيل الكرامات والمعرفة. فهو الجهاد الأكبر وبه المقام الأعظم، وبذلك كله

---

١ - ص٩ ج١ نفسه
٢ - ص٨٠ نفسه
٣ - ص٩ الأنوار القدسية
٤ - ص٧٣ ج١ الطبقات الكبرى، ص٤٧ طبقات الصوفية

أصبح التصوف في نهاية الأمر مأوى للحرافيش والأراذل، حتى أنه "ليستدل من شواهد كثيرة عند ابن إياس والمقريزي وابن تغري بردي أن كثيراً من هؤلاء الحرافيش ادعى التصوف وانضموا إلى فرقها المنتشرة، طمعاً في أمن العيش"[١] وفق أهون السبل، حتى أصبح مذهبهم "مهنة يتخذها كل عاطل عن العمل- وكثيراً ما يكون بينهم المجرمون وأرباب السوابق"[٢]، وها هو الشيخ علي الكردي يقدم ما يأتيه من صدقات الأكابر أطعمة "للحشاشين"[٣] دون أن يعترض عليهم بما هم فيه من البلاء العظيم.

[١] - ص٤٢ التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس
[٢] - ص١٢٠ العقلية الصوفية ونفسانية التصوف
[٣] - ص٨١ ج٢ الطبقات الكبرى

ـ التسول مقام شريف:

الفناء قمة الطريق وغاية الرياضات وعتبة الوصول، وما بالك إن كان التسول واحداً من مظاهره، والسهروردي يقول: "سمعت أن بعض من أقيم في هذا المقام من الفناء كان يبقى أياماً لا يتناول الطعام والشراب حتى يتجرد له فعل الحق فيه ويقيض الله تعالى له من يطعمه ويسقيه كيف شاء وأحب"[1]. ولم لا؟ طالما أن الفناء يعني الجمع وهل إرادة الصوفي عندها إلا إرادة الله عز وجل، أو ربما أن الصوفي يتظاهر بالغيبوبة والفناء استدراراً لعطف الناس حتى يتولونه بالرعاية والشفقة.

الجمع؟ ليس قبل الجمع ما هو أشرف منه وانتظار الفتوح يعتبر في نظر الصوفي معبراً عن هذا المقام الشريف، فأهل الصُفَّة على ذمة ابن عجيبة تركوا "الأسباب التي هي شريعة الضعفاء وتمسكوا بالتجريد الذي هو شريعة الأقوياء وحقيقة الأصفياء فصيروا الفرق الذي هو الاشتغال بالأسباب لعين الجمع الذي هو الاشتغال بحسب الأسباب، فالنظر للأسباب فرق، والنظر لمسبب الأسباب جمع، وهذا كقول الشيخ أبي العباس رضي الله عنه: للناس أسباب وسببنا الإيمان والتقوى"[2].

فالمتسول على طريقة الفتوح قوي، مؤمن، يعيش بجمع الجمع حيث لا فرق بين الخالق والمخلوق وشتان بينه وبين شرك أهل الفرق الذين

---

[1] - ص٢٤٧ بـ٦١ عوارف المعارف

[2] - ص ٨٦ – ٨٧ ج١ الفتوحات الإلهية

اتخذوا من الأسباب آلهة لهم، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر بالكسب إلا لمن كان متشوفاً من صحابته، إلا لمن كان قليل الإيمان والتقوى "مثل حكيم بن حزام رضي الله عنه. فإنه سأله فأعطاه، ثم سأله فأعطاه، ثم سأله فأعطاه، ثم قال له – الرسول -: يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه- . ثم قال له: لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه، فدله عليه السلام على التسبب لما تشوفت نفسه للأسباب بدلاً عن المسئلة إذ هي آخر كسب المؤمن- ولذلك قال الخواص: القعود عن المكاسب لا يصلح لمن لم يستغن عن التكلف"[1]. فآخر العلاج الكي، وما أمر الرسول صلى الله عليه وسلاماً حزاماً بالاحتطاب إلا عندما رآه غير جدير بشرف التسول، ومن أجل التسول وفضائله لا يتوانى الصوفي عن وضع الأحاديث أو تأويلها لتفي بما يريد من الهوى استقامةً مع الكسل والعقيدة التي آمن بها.

ولما كان العيش على الفتوح قمة ما يلهث إليه الصوفي، نراه قد جعل الفتوح من أهم مظاهر التوحيد الذي آمن به، "فإذا وصل العبد – كما

---

[1] - ص٨١ – ٨٢ ج١ الفتوحات الإلهية

يقول السهروردي – إلى مبادي أقسام التجلي، وهو مطالعة الفعل الإلهي مجرداً عن فعل سواه، يكون تناولهم الأقسام من الفتوح"[1].

فالفتوح غير جائزة لكل من زعمها وكيفما اتفق، إنها للواصلين من أصحاب التوحيد ومن أرادها لا بد له من الإيمان بشهادتي توحيدهم اللتان على الند من توحيد لا إله إلا الله، ليقول: "لا فاعل ولا موجود سواه سبحانه تعالى"، وبذلك يكون له الوصول إلى الجمع.

انتظار الفتوح وترك التدبير والإيقان بتدبير الله فيه كل القربة إلى الله، وتلك هي سمات الأبدال، وعندما "سئل سهل بن عبد الله التستري عن علم الحال، قال: هو ترك التدبير ولو كان هذا في واحد لكان من أوتاد الأرض"[2]، ولهم دون سواهم يكون العيش على الفتوح، فالصوفي يكره أن يزاحمه أحداً في موارد رزقه، وبندار بن الحسن رضي الله عنه، يقول: "من سأل وله ما يغنيه خفتُ أن يخاصمه فقراء المسلمين – أي المتصوفة – يوم القيامة، ويقولون أخذت ما جعل لنا من المال ولم تكن منا"[3].

موارد التصوف ليست بالقليلة، فهي متناسبة طرداً مع جهل الناس في دينهم وقلوبهم العامرة بالسذاجة. وليس غريباً أن ترى أجسام

---

[1] - ص١٠١ عوارف المعارف
[2] - ص١٠١ عوارف المعارف
[3] - ص١٣٩ ج٢ الفتح الإلهي

الواصلين قد اكتنزت باللحم وترهلت دون المريدين، وقد قيل مثلاً للشبلي ذات مرة: "نراك جسيماً بديناً والمحبة تفني؟ فأنشد:

"أحبَّ قلبي وما درى بدني ولو درى ما أقام في السِّمن" [1]

الدين في التصوف أحد أسباب الرزق، حتى أن أحدهم يقول: إن أطيب الأكل هو "الأكل من الدين"[2]، والأكل من الدين لن يكون على الحقيقة إلا باستغلال مشاعر البسطاء وعوام المسلمين، الذين يحتقرهم، ولولا السذاجة ما كان للصوفي تلك الهيبة الاجتماعية بما تعنيه من الأسرار والخوارق وإلى ما هنالك، وهكذا أصبح العوام "عبيداً لهم من دون الله يكدون ويشقون الليل والنهار لخدمة شهواتهم وتوفير أسباب العظمة والكبرياء لهم ليكونوا أرباباً من دون الله"[3].

المتصوفة كما رأينا قد اختلفوا في فقه التصوف حول الحامل للواجب والمندوب، إلا أنهم جميعاً تسولوا كما أجمعوا على ضرورة التسول، إلا أنه لكل شيخ أحواله وظروفه، فمن كان له في تسول مريديه الكفاية فلا حاجة لأن يتسول، ومن كان محتاجاً أكثر ستراه ذاهباً ليسأل

---

[1] - ص٣٩١ الصوفية في نظر الإسلام
[2] - ص٢ ج٢ إحياء علوم الدين
[3] - ص ص ج١ مدارج السالكين

الناس بما فيهم العوام والأمراء والتجار، ومن هذا الأساس الشخصي كان اختلافهم.

أما من نظر في مسألة التسول الصوفي إجمالاً وعلى الحقيقة رآها ذات جانبين: جانب ينتمي إلى العقيدة حيث إعتقادهم بتوحيد لا فاعل ولا موجود إلا الله حيث انعدام الأخذ بالأسباب، وبهذا الجانب يتضح معنى الموارد الاقتصادية للتصوف بكل ما تعنيه الكلمة.

أما الجانب الآخر فهو سلوكي مستنبط من فقه الرياضات ومحاسبة النفس، وهذا شأنهم ولا ضير، أما من وجهة النظر الإسلامية ففي هذين الأصلين كل الخروج عن أصول العقيدة والتشريع، لأنه من غير المعقول للمسلم رفع الأسباب، وفي الإسلام تكاليف وحساب، ومن المحال أيضاً أن تتساوى الرياضات الصوفية كمصدر للإحكام مع القرآن والسنة والإجماع.

وفي الختام نقول: إن احتراف التسول ليس من الإسلام في شيء، ولا هو من مظاهر الدين ولا هو من وسائل القربى إلى الله، والقشيري يروي قصة تحوي توضيحاً لارتباط التوكل بالتسول وارتباط التسول بالوثنية، فقد تاب أبو علي شقيق البلخي كما يقول، حتى أصبح صوفياً، "وكان سبب توبته أن كان من أبناء الأغنياء، خرج للتجارة إلى أرض الترك وهو حدث، فدخل بيتاً للأصنام فرأى خادماً للأصنام فيه، قد حلق

رأسه ولحيته ولبس ثياباً أرجوانية. فقال شقيق للخادم: إن لك صانعاً حياً عالماً قادراً فاعبده ولا تعبد هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع. فقال: إن كان كما تقول فهو قادر على أن يرزقك ببلدك فلمَ تعنيت إلى ها هنا للتجارة. فانتبه شقيق وأخذ في طريق الزهد. فكيف ينبغي أن يهتم المسلم لرزقه ومولاه غني"[١]. وبناء عليه فإما أن تقول بإله حي له القدرة على رزقك لتترك الأخذ بالأسباب، وإما أن تقول بإله لا ينفع ولا يضر، ولا مفرَّ لك حينئذ من الأسباب، والبلخي انتصر للإله الحي بهذا الإلزام الوثني.

[١] - ص١٣ الرسالة القشيرية

القبور والموارد الاقتصادية في التصوف:

ـ تقديس القبور:

إن لتقديس القبور في التصوف أسساً ترتبط بفكرتي الظاهر والباطن، وبامتداد الكرامة إلى ما بعد الموت. فالقبر في الظاهر تراب وجثة هامدة، وفي الباطن حياة وإرادة وكرامات، ومن تقرب إلى المحبوب تقرب إلى المحب سبحانه وتعالى.

إن للقبور شأناً عظيماً في حياة الصوفي الاقتصادية، ولتقديسها صاغ البراهين التي لا تحصى، فالشيخ أبو سعيد الخراز يقول: "اجتمعت بشخص من أصحاب أبينا ابراهيم الخليل عليه السلام وقال أنه ساكن في الهواء منذ رمي ابراهيم عليه الصلاة والسلام بالمنجنيق"[1]، والشيخ مكين الدين الأسمر "قال: بت بالقرافة ليلة جمعة فلما قام الزوار قمت معهم وهم يتلون القرآن إلى أن انتهوا في التلاوة إلى سورة يوسف ومنها إلى قوله: "وجاء إخوة يوسف" وانتهوا في الزيارة إلى قبور إخوة يوسف فرأيت القبر قد انشق وطلع منه إنسان طويل خفيف شعر اللحية صغير الرأس أدم اللون وهو يقول: من أخبركم بقصتنا؟ هكذا كانت قصتنا!"[2]. فكيف للمؤمن إنكار حياة الموتى، وها هم أصحاب إبراهيم الخليل ما زالوا أحياء يعيشون في الهواء، وها هم أيضاً إخوة يوسف يخرجون من القبر بما كانوا عليه وهم بكامل وعيهم، وهل بعد الإدراك من برهان؟!

---

[1] ـ ص٩٣ ج١ الطبقات الكبرى

[2] ـ ص١٤٨ لطائف المنن

ومن جملة أغراض المتصوفة من قولهم بحياة الخضر، رغبتهم في جعله برهاناً على حياتهم الفاعلة بعد الموت، وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم من جملة براهينهم التي يعتمدون عليها، فالشيخ أبو الخير الأقطع التيناتي "يقول: أتيت قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا جائع فقلت: أنا ضيفك يا رسول الله. وتنحيت ونمت خلف القبر، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم فقبلت ما بين عينيه، فدفع لي رغيفاً فأكلت نصفه، وانتبهت وبيدي النصف الآخر"[1]. وليس هذا وحسب، بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه يعظم القبور، فقد أرسل لابن عربي يحثه على كتابة قصيدة في مدح الأنصار لتعلق على قبر الست قائلاً: فاكتبه بخط بين واحمله ليلة الخميس إلى تربة هذا الذي تسمونها قبر الست، فستجد عندها شخصاً اسمه حامد، فادفع إليه المديح"[2]، كما يروي المتصوفة حديثاً نسبوه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يقولون فيه: "إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور"[3]. ففي القبور قضاء الحاجات مهما تكن ابتداء بإزالة الهم نهاية بإزالة المرض، وقد ميز الله هذه الأمة المحمدية كما يقولون بأن جعل حاجاتها مقضية عن طريق القبور، والدباغ يقول: "إن قلوب أمة محمد صلى الله عليه وسلم لها شأن عظيم عند الله، ولو أنها اجتمعت على موضع لم يدفن فيه أحد وظنت فيه ولياً وجعلت ترغب إلى

---

[1] - ص١٠٦ ج١ الطبقات الكبرى
[2] - ص٢٧٠ – ٢٧١ الروحية عند محيي الدين ابن عربي
[3] - ص٣٢ الصوفية في نظر الإسلام

الله تعالى في ذلك الموضع، فإن الله تعالى يسرع لها بالإجابة"[1]. فليس من منكر إن توسلوا إلى الله بقبر الحلاج الذي لا رفاة فيه، فإجماعهم فقط على ولايته فيه كل الكفاية على جواز التوسل به، لأن الأولياء هم ورثة الأنبياء، والغزالي يقول: "فإنه لا فرق عند الأنبياء في كونهم في دار الدنيا وفي كونهم في دار الآخرة"[2]. وبعد أن ساوى الغزالي بين الأولياء والأنبياء بمصطلح الوراثة قال: "فإنه لو وضع شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عضادته أو سوطه على قبر عاصٍ أو مذنب نجا ذلك المذنب ببركات تلك الذخيرة من العذاب، وإن كان في دار إنسان أو بلدة لا يصيب تلك الدار وأهلها وتلك البلدة وسكانها ببركاتها بلاء"[3]. وإن قلت فما الذي تفعله الذخائر على الحقيقة، لرأيته يقول: اعلم أن "الملائكة عليهم السلام يعظمون النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا رأوا ذخائره في دار أو بلدة أو قبر عظموا صاحبه- ولذلك السبب ينتفع الموتى أن توضع على قبورهم المصاحف- ويكتب القرآن على قراطيس، وتوضع القراطيس في أيدي الموتى"[4]. وبالوراثة تكون ذخائر الصوفي وقبره قائمة بنفس الأفعال التي زعمها للرسول صلى الله عليه وسلم، والدباغ يقول: إن لقبره صلى الله عليه وسلم عموداً من نور يمتد إلى قبة البرزخ

[1] - ص١٦٤ ج٢ الإبريز
[2] - ص١٢٤ المظنون به على غير أهله
[3] - ص١٢٥، ٨٧ نفسه
[4] - ص١٢٦ – ١٢٧ نفسه

"وتأتي الملائكة زمراً زمراً وتطوف بذلك النور. فكل ملك عجز عن سر، أو عن تحمل أمر، أو حصل له كلل، أو وقوف في مقام، فإنه يجيء إلى النور الشريف ويطوف به، فإذا طاف به اكتسب قوة كاملة"[1]، وقياساً على ذلك تكون قبور الأولياء أيضاً هي المصدر لإرشاد السالكين ومساعدتهم.

الصوفي في علاقته بالموت أعظم شأناً من الرسول نفسه، إنه على الأقل يعرف أين ومتى سيموت ولا غيب أمام إدراكه المطلق، إنه علام الغيوب، وليس هذا فحسب فالشيخ محمد الشربيني أعلم من عزرائيل حتى في مهامه الموكل بها، فقد جاءه مرة لقبض روح ولده أحمد، فقال له "الشيخ: ارجع إلى ربك فراجعه، فإن الأمر نسخ. فرجع عزرائيل وشفي أحمد"[2].

صوفي شاب أتى إلى الشيخ ممشاد الدينوري فسأله عن مكان نظيف ليموت فيه، وبالفعل مات في المكان الذي عينه له. فقد علم الشاب متى يكون موته!"[3]، والشيخ عباس المديني حدد مكان موته قائلاً: "أنا أموت بتلمسان"[4]، والشيخ ابراهيم متبولي سعى هو الآخر إلى مكان موته "متوجهاً نحو القدس، فقالوا له: إلى أين؟ فقال: إلى موضع تقف فيه

---

[1] - ص٣١٩ ج٢ الإبريز
[2] - ص١٣٥ ج٢ الطبقات الكبرى
[3] - ص١٣٨ الرسالة القشيرية
[4] - ص٩٢ سير الأولياء

حمارتي، فوقفت بأسدود تجاه قبر سليمان رضي الله عنه فمات هناك"[1]، والشيخ أحمد الحرار عرف متى موته"[2]، وكذلك الشيخ خير النساج"[3]. فالنفس عند الصوفي تدري بأي أرض تموت، بل وحمارته لها هذا العلم!

الصوفي مميز بموته فإنه ليس كسواه من الخلق "ويحكى عن ابن سهل الأصفهاني أنه قال: أترون أني أموت كما يموت الناس مرض وعيادة؟ إنما أدعى. فيقال: يا علي! فأجيب. فكان يمشي يوماً فقال: لبيك ومات"[4].

ليس الموت أمام إرادة الصوفي بالشيء المحال، فليس من المحال تجاوزه، فالشيخ مفرج القصيباتي أحيا الفراخ المشوية"[5]، وكذلك أحياها الشيخ الرفاعي، أما الشيخ أحمد البدوي فقد "أحيا نفسه وهو ميت"[6]. وللصوفي أيضاً القدرة على تأجيل الموت، بل وبإمكانه دحض عزرائيل، فعندما "مرض سيدي مدين رضي الله عنه مرة وقد أشرف فيها على الموت وهبه – الشيخ محمد الشربيني – من عمره عشر سنين ثم مات في غيبة الشربيني رضي الله عنه، فجاء وهو على المغتسل فقال: كيف مت؟

---

[1] - ص٨٧ ج٢ الطبقات الكبرى
[2] - ص٤٢ سير الأولياء
[3] - ص١٤٠ الرسالة القشيرية
[4] - ص١٤٠ نفسه
[5] - ص٩٦ سير الأولياء
[6] - ص٨٦ السحر بين الحقيقة والخيال

وعزة ربي لو كنت حاضرك ما خليتك تموت"[1]. فكيف يموت قبل انقضاء العشر سنوات التي وهبه إياها؟!

الصوفي يحيي الموتى لأنه ليس وارثاً لمحمد صلى الله عليه وسلم فحسب، وإنما له وراثة كل الأنبياء وكل ما نسب لهم فهو له، فإن أحيا عيسى عليه السلام الموتى فلا بد للصوفي من إحيائها بلا فرق، وهو حينئذ عيسوي المقام أو الإرث.

إذا مات الصوفي أتت الملائكة أمام الجميع لحضور جنازته، فعندما مات الشيخ ذو النون المصري "رأى الناس طيوراً خضراً ترفرف على جنازته حتى وصلت إلى قبره رضي الله عنه"[2]. ومن ثم عادت إلى السماء، والشيخ رسلان الدمشقي "لما أن حمل نعشه على أعناق الرجال جاءت طيور خضر وعكفت على نعشه رضي الله عنه"[3]، والشيخ أبو محمد البصري "لما صُلي عليه سُمع في الجو أصوات طبول تضرب، وكانوا كلما رفعوا أيديهم في التكبير للصلاة عليه سمعوها"[4]. فالخوارق المرافقة لموت الصوفي لا تحصى، فقد انفلق البحر لموت أحدهم على المركب ليدفنوه في القاع ومن ثم عاد كما كان"[5]، وعندما لم يجدوا ضوءاً

---

[1] - ص١٠٣ ج٢ الطبقات الكبرى
[2] - ص٧٠ ج١ الطبقات الكبرى
[3] - ص١٥٤ نفسه
[4] - ص١٥٠ نفسه
[5] - ص١٦٩ الرسالة القشيرية

عند غسلهم للصوفي الميت وقع من كوة ضوء فأضآت البيت فغسلناه. فلما فرغنا ذهب الضوء كأن لم يكن"[1]. وحدِّث بأمثال هذه القصص ولا حرج.

الصوفي يحيي الموتى ويعرف بمكان وزمان موته، وإن مات تحضر الملائكة جنازته والخوارق ترافقه. فهل كثيراً بعد هذا كله إن طلب من مريديه التوسل إلى الله بقبره؟ وليس هذا فحسب فالشيخ محمد الفرغلي "كان رضي الله عنه يقول: أنا من المتصرفين في قبورهم، فمن كانت له حاجة فليأتِ إلى قبالة وجهي ويذكرها لي أقضيها له"[2]. فهو الذي يقضيها لا أحد سواه، وكذلك الشيخ ميس الحراني من المتصرفين في قبورهم"[3]، وروى سري السقطي أن شيخه "قال له يوماً إذا كانت لك حاجة إلى الله فأقسم عليه بي"[4]، والشاذلي يقول لمريديه: إذا عرضت لكم إلى الله حاجة فتوسلوا إليه بالإمام أبي حامد الغزالي"[5]، ولقد قال الشيخ شمس الدين الحنفي "في مرض موته: من كانت له حاجة فليأت إلى قبري ويطلب حاجته أقضها له فإن ما بيني وبينكم غير ذراع من تراب"[6]، وبعد أن طلب الرفاعي من مريديه أن يتجهوا إلى قبره في قضاء حوائجهم قال: "وكل شيخ لا يراعي تلميذه في القرب والبعد في حال حياته وبعد مماته

---

[1] - ص١٦٦ نفسه
[2] - ص١٠٥ ج٢ الطبقات الكبرى
[3] - ص٤٢٧ قلادة الجواهر
[4] - ص٩ الرسالة القشيرية
[5] - ص٢٩٢ مدخل إلى التصوف الإسلامي
[6] - ص٩٦ ج٢ الطبقات الكبرى

فليس هو عندها برجل"[1]، والشيخ منصور بزعمه من الرجال حتى قال: "كل خطوة إلى نهر دقلى لأجل – قبر – سيدي الشيخ منصور خطوة إلى الله تعالى. وقال رضي الله عنه أيضاً: إذا قبَّلتم عتبة- قبر الشيخ منصور فاعتقدوا أنكم تقبلون يده"[2].

تعظيم مقابر الأولياء من تعظيم الله، ومن سلك قاصداً قبورهم كأنما سلك إلى الله تعالى، والشيخ أبو عبد الله السزجسي "كان يقول: أنفع شيء "للمريد"- زيارات قبور الأولياء والقيام بخدمة الأصحاب والرفقاء"[3]، والبرهاني العصري يقول: "الولي من ينفعك بإذن الله بعد موته أكثر منه في حياته"[4]، والمريد العامل "بالمهنة الهندسية"[5] يتكلم عن مميزات قبر الدباغ قائلاً: "من خصائصه أن التوسل به إلى الله تعالى مجرب، تحققته بنفسي"[6]، فهو "من أعظم الأضرحة وأجلها، ومقامه تشد إليه الرحال، وتتزاحم عليه العباد"[7]، ولكن هل سمعتم بقصة الكلب الذي أصبح شيخاً أو ولياً من الأولياء، فقد خرج الشيخ يوسف العجمي ذات مرة حسبما يروي الشعراني "من خلوة الأربعين فوقع بصره على كلب فانقادت إليه جميع الكلاب وصار الناس يهرعون إليه في قضاء حوائجهم، فلما مرض

---

[1] - ص٩٤ قلادة الجواهر
[2] - ص١٨١ نفسه
[3] - ص١٠٠ ج١ الطبقات الكبرى، ص٢٥٥ طبقات الصوفية
[4] - ص١٣ ج١ الإبريز
[5] - ص١٤ نفسه
[6] - ص١٢ نفسه
[7] - ص١١ نفسه

ذلك الكلب اجتمع حوله الكلاب يبكون ويظهرون الحزن عليه، فلما مات أظهروا البكاء والعويل، وألهم الله تعالى بعض الناس فدفنوه، فكانت الكلاب تزور قبره حتى ماتوا"[1] جميعاً. فهل بالشيء الكثير إن طلب الصوفي من مريديه زيارة قبره للاستغاثة به، إن كانت الكلاب والناس قد قصدوا الكلب وقبره في قضاء حوائجهم لما انتقل إليه فيض بسيط من ولاية العجمي؟!

---

[1] - ص٦٦ ج٢ الطبقات الكبرى

ـ كرامات القبور:

الاستغاثة نداء وطلب والصوفي في قبره يجيب من استغاث به، إنها كرامة، فالصوفي يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وهل بين الداعي والمدعو إلا ذراعاً من تراب. فالاستغاثة بالميت برأي المتصوفة جائزة "وأما جواز نداء الميت فيكفينا – حسبما يقولون – دليلاً على أن النبي صلى الله عليه وسلم نادى أصحاب القليب يوم بدر"[1]، "وأما قوله تعالى "فلا تدعو مع الله أحداً" وقوله تعالى: "إن الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم" ونحو ذلك من الآيات القرآنية، فالخطاب موجه للكفار والمشركين"[2] لا للمتصوفة. فللصوفي أن يعتقد أن الأولياء ليسوا كسائر البشر بل وله أن يدعو مع الله أياً شاء منهم، طالما الأولياء هم الواسطة بين الحق والخلق سواء في حياتهم أو مماتهم "أهل الله هم الوسائط إلى الله والوسائط إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم"[3]. فاسعوا إلى قبورهم يقربونكم من الله زلفى "فكما جاز أن يتوسط حي في قضاء مصلحة حي أو ميت، والفعل لله وحده"[4]، كذلك يجوز توسط الولي بين الخالق والمخلوق.

---

[1] ـ ص٣٤٢ قلادة الجواهر
[2] ـ ص٢٤٤ نفسه
[3] ـ ص٢٤٥ نفسه
[4] ـ ص٤٤٩ ج١ الإنسان روح لا جسد

للقبور كرامات والشيخ شهاب الدين الرملي يقول: "كرامات الأولياء لا تنقطع بموتهم"[1]، أما الشيخ أحمد الحضرمي فيرى أن إمداد الميت أقوى من إمداد الحي "لأنه في بساط الحق"[2]، "فلا ينبغي لمن يخشى سوء العواقب وغضب الله تعالى أن ينكر كرامات الأولياء بعد الموت. ويخشى على منكر ذلك من سطوة الله تعالى وبطشه به"[3]. فإياك إياك، إلا أن أصحاب الطريقة الرفاعية يقولون: "كان الأولياء يتصرفون بها – أي بالكرامات – في حال حياتهم خاصة، فإذا ماتوا انفصلت عنهم إلا السيد أحمد الرفاعي الكبير فإن كراماته معه حياً ميتاً لا تنفصل عنه"[4]. وبالطبع سينسبون كل خوارق قبور الأولياء الآخرين إلى الشيطان، طالما لم تكن بالاستحقاق إلا للرفاعي دون سواه!

---

[1] - ص٢٤٥ قلادة الجواهر

[2] - ص٢٤٥ نفسه

[3] - ص١٠٥ نفسه

[4] - ص٤٣٩ نفسه

ـ الصوفي الميت حي:

يقول المتصوفة: "إن الأولياء لا يموتون وإنما يُرفعون، وأن أجسادهم لا تبلى في القبور، وأنهم في حياة البرزخ يشرفون على شؤون الخلق كما كانوا في الدنيا"[١]. إنهم كعيسى في حياته ورفعه، فهم الشهداء بالمشاهدة، فهم الأحياء "فمن أحوالهم – كما يقول ابن عربي – بعد الموت أنهم أحياء بالحياة النفسية التي بها يسبح كل شيء. ومن كانت له همة بمعبده في حال عبادته في حياته ـ. فإذا مات ودخل أحد بعده معبده ففعل فيه ما لا يليق بصاحبه الذي كان يعمره ظهرت فيه آية ـ. فيبقى أثر مثل هذا الشخص بعد موته يفعل مثلما كان يفعله في حياته سواء"[٢]، وعن جسم الصوفي الذي يبقى دون تحلل أو تفسخ يقول معللاً: "فإنه كان في زمان حياته في الدنيا في صورة الميت، حاله الموت، فجعله الله في حال موته كمن حاله الحياة جزاء وفاقاً. ومن صفات صاحب هذا المقام في موته: إذا نظر الناظر في وجهه وهو ميت يقول فيه: حي، وإذا نظر إلى مجس عروقه يقول فيه: ميت ـ. وقد رأيت ذلك لوالدي رحمه الله"[٣]، والموت برأيه "عبارة عن الانتقال من منزل الدنيا إلى منزل الآخرة، ما هو عبارة عن إزالة الحياة منه"[٤]، "ويقول أن المنكر لحياة الميت هو نفسه

---

[١] ـ ص١٧٦ الصوفية في نظر الإسلام
[٢] ـ ص٢٢١ ج١ بـ٣٥ الفتوحات المكية
[٣] ـ ص٢٢٢ ج١ بـ٣٥ نفسه
[٤] ـ ص٢٩٠ ج٤ بـ٥٥٨ نفسه. حضرة الموت

الميت. فالشخص المادي هنا هو الذي لن يحيا بعد الموت"[1]، والشيخ أبو عثمان المغربي يقول: "حاشا الصوفي أن يموت. "فالولي يربي مريده وهو في قبره ويسمع مريده صوته من القبر"[2]، فليس من فرق بين الموت والحياة عند الصوفي لا على مستوى الأفعال سواء كانت طاعة أو معصية ولا على مستوى المعرفة. فلا انقطاع لعمل الميت لا بثلاث ولا أكثر أو أقل شأن جميع أبناء آدم، كما هو مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية وولد يدعو له وعلم ينتفع به".

الشعراني يضاهئ ابن عربي ليقول أيضاً: "فلما مات والدي أدخلوه عليه – أي على جده علي بن شهاب – فوجدوه طرياً كما وضعوه وبين دفن والدي ودفنه إحدى وعشرون سنة"[3]، والشيخ يوسف الكردي يقسم بأغلظ الإيمان قائلاً: "فوالله لقد رأيت والده خرج من القبر ينفض التراب عن رأسه حين ناداه الشيخ"[4]، "ولما مات ابن الجلاء نظروا إليه وهو يضحك، فقال الطبيب: إنه حي ثم نظر إلى مجسته فقال: إنه ميت، ثم كشف عن وجهه فقال: لا أدري أهو ميت أم حي، وكان في داخل جلده

[1] - ص٣٧٠ الروحية عند محيي الدين ابن عربي
[2] - ص٧٢ ج٢ الطبقات الكبرى
[3] - ص١١١ ج٢ الطبقات الكبرى
[4] - ص٨٥ ج٢ نفسه

عرق على شكل لله"[1]، "وكان سهل على التخت يُغسَّل، وسبابته من يده اليمنى منتصبة يشير بها"[2]، والشيخ أبو عمرو الإسطخري يقول: رأيت أبا تراب النخشبي في البادية قائماً، ميتاً لا يمسكه شيء"[3]. وأي كرامة أعظم من ان يبقى الميت واقفاً بلا عمد لا يمسكه شيء؟! والشيخ ابراهيم بن شيبان يقول: "وافاني بعض المريدين، فاعتل عندي أياماً، فمات، فلما أن أدخل في قبره أردت أن أكسف خده وأضعه على التراب تذللاً لعل الله يرحمه، فتبسَّم في وجهي وقال لي: تذللني بين يدي من يدللني؟ قال: قلت: لا يا حبيبي، أحياة بعد الموت؟ فأجاب: أما علمت أن أحباءه لا يموتون، ولكن ينقلون من دار إلى دار"[4]، "والربيع بن خراش، كان حلف أن لا يضحك حتى يعلم أفي الجنة هو أم في النار. "وعندما مات" فإنهم لجلوس حوله، إذ طرح الثوب عن وجهه، فاستقبلهم وهو يضحك"[5]، وقيل أن الشيخ عبد الله بن مبارك فتح عينيه بعد موته "وضحك وقال: لمثل هذا فليعمل العاملون"[6]، وشاب ميت ابتسم في وجه أبي سعيد الخراز وقال: "يا أبا سعيد! أما علمت أن الأحباء أحياء"[7]، وبينما كان الشيخ أبا يعقوب السوسي يغسل أحد المريدين المتصوفة أمسك الميت بإبهامه، فقال له: "يا

[1] - ص٢٠ الرسالة القشيرية
[2] - ص١٥٨ التعرف لمذهب أهل التصوف
[3] - ص١٥٨ نفسه، ص١٣٨ الرسالة القشيرية
[4] - ص١٥٨ التعرف لمذهب أهل التصوف
[5] - ص١٥٩ نفسه
[6] - ص١٣٧ الرسالة القشيرية
[7] - ص١٤٠ نفسه

بني خلِّ يدي أنا أدري أنك لست بميت وإنما هي نقلة من دار إلى دار، فخلى يدي"[1]، والسوسي نفسه أتاه مريد وأعطاه دينار وقال له: أنا غداً أموت، وعندما وضعه في اللحد، فتح عينيه فقلت: أحياة بعد موت؟ فقال: أنا حي وكل محب لله حي"[2]، والشيخ "ابراهيم بن شيبان يقول: صحبني شاب حسن الإرادة فمات فاشتغل قلبي به جداً، وتوليت غسله فلما أردت غسل يديه بدأت بشماله من الدهشة، فأخذها مني وناولني يمينه فقلت: صدقت يا بني أنا غلطت"[3]، "والسيد البدوي الذي بعد أن مات قام فغسل نفسه وبعد انتهائه من الأمر مات ثانية"[4]، والشعراني اتجه بحاجته إلى قبر الشيخ أبو العباس الحريثي والمسافة بينهما طويلة يقول: "فرأيته قد خرج من قبره يمشي من دمياط – إلى مصر -، وأنا أنظره إلى أن صار بيني وبينه نحو خمسة أذرع، فقال: عليك بالصبر ثم اختفى عني رضي الله عنه"[5]، وعن الشيخ نور الدين الشوني يقول الشعراني: "ولما توفي رضي الله عنه رأيته في قبره وقد اتسع مد البصر وهو مغطى بلحاف حرير أخضر مساحته قدر فدان ثم إني رأيته بعد سنتين ونصف وهو يقول لي: غطني بالملاية، فإني عريان! فلم أعرف ما المراد بذلك، فمات ولدي محمد تلك الليلة فنزلنا به ندفنه بجانبه في الفسقية فرأيته عرياناً على

---

[1] - ص١٧٠ – ١٧١ نفسه
[2] - ص١٧١ نفسه
[3] - ص١٧١ نفسه
[4] - ص١٣٢ الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم
[5] - ص١٧١ ج٢ الطبقات الكبرى

الرمل لم يبق من كفنه ولا خيط واحد ووجدته طرياً يخر ظهره دماً مثل ما دفناه"[1]، أما أبو يزيد البسطامي فيقول: "تفكرت أن أجعل نفسي في قبة خضراء فيي هذا الهواء بعد موتي، فخشيت من سهم المتقرئين أن يقولوا: انظر إلى هذا الرعناء! أراد أن يظهر نفسه، فتركت ذلك ولم أفعل"[2].

إن مات الصوفي فسوف يبقى حياً في رعايته لمريديه، وأحد مريدي الشيخ الميت أبو العباس ذهب إلى الشيخ عبد الرحيم ليأخذ عنه العهد، ولكنها المفاجأة "فخرجت يد أبي العباس من الحائط فمنعت يد الشيخ عبد الرحيم. فقال – عبد الرحيم – رحم الله أخي أبي العباس يغير على أولاده حياً وميتاً رضي الله عنه"[3].

الأولياء لا يموتون، والغزالي يقول: فمنهم من يكون طوافاً في الأرض حتى تقوم الساعة وكثيراً ما يرى في الليل..."[4]

[1] - ص١٧٣ ج٢ نفسه
[2] - ص١٢٠ النور من كلمات أبي طيفور
[3] - ص٤ ج٢ الطبقات الكبرى
[4] - ص١٣٥ سر العالمين

ـ الصوفي يقيم التكاليف في قبره:

قال بعض الأولياء حسب ابن عربي "وكان محباً في الصلاة: يا رب إن كنت أذنت لأحد أن يصلي في قبره فاجعلني ذلك. فرؤي وهو يصلي في قبره"[١]، والشيخ موسى بن ماهين الزولي لما وضعوه في لحده نهض قائماً يصلي، واتسع له القبر وأغمي على من كان نزل قبره رضي الله تعالى عنه"[٢]، ويقولون عند الشيخ ثابت بن أسد البناني أنه لما "مات وسووا عليه اللبن وقعت عليه لبنة فإذا هو قائم يصلي في قبره. ولما مات كان الناس يسمعون من قبره تلاوة القرآن رضي الله تعالى عنه"[٣]، ويقول الشعراني: فسُمع جدي يقرأ القرآن في قبره فابتدأ من سورة مريم إلى سورة الرحمن فطلع الفجر فسكت الصوت"[٤]، والشيخ صالح المرسي "كان يسمع كلام الموتى ويكلمهم ويكلمونه بالمواعظ رضي الله عنه"[٥].

والمتأمل في هذه الروايات وأمثالها سيراها بالفعل تقصد أغراضاً محددة، وبعض الكرامات كما يقولون هي من باب الحكايات التي تفيد الإرشاد، ومن إرشاد هذه الروايات البرهنة على إمكانية الدور الكوني للأولياء بعد موتهم، ولإرهاب الخصوم إن حاولوا إهانة موتاهم وأماكنهم،

---

[١] ـ ص٣٨٥ الروحية عند محي الدين ابن عربي
[٢] ـ ص١٤٠ ج١ الطبقات الكبرى
[٣] ـ ص٣٦ ج١ نفسه
[٤] ـ ص١١١ ج٢ نفسه
[٥] ـ ص٤٦ ج١ نفسه

ومن مقاصدها أيضاً الاحتفاظ بتصوف المريدين الذين مات عنهم الشيخ، وبها إشارة إلى انتفاع الملتجئين إلى قبور أوليائهم، وبها الدلالة أيضاً على حرص الصوفي على التكاليف الشرعية حتى بعد موته، فهذا يطالب بالغسل الشرعي وذاك ما زال يتشهد والآخر يضحك لحسن مصيره وها هم يقيمون الصلاة ويقرؤون القرآن في قبورهم، وهل للزاعمين بإسقاط الصوفي للتكاليف أعظم من هذه البراهين الداحضة لهم؟! إلا أنهم لم يقولوا بهذه الحكايات على الحقيقة إلا دحضاً للعلماء الذين نسبوا أفعال القبور إلى الشياطين لا إلى الموتى، حيث لا جمع بين الشيطان والقرآن.

ـ الخدمات التي يقدمها قبر الصوفي:

إن لقبور الأولياء في العالم الصوفي مهام جليلة، وزيارتها عند العارفين تسمى حجاً لأنها بمثابة الكعبة الشريفة عند المسلمين، والرفاعيون يقولون:

"بيتان حج العارفون إليهما بيت الرسول وشبله ببطاح
أعني به المولى الرفاعي الذي خُلقت أنامله من الأرباح" [1]

وللتوسل بقبر الرفاعي تعاليم خاصة، فعلى المستغيث أو المتوسل أن "يتوجه إلى جهة الشرق نحو البصرة وفلاة أم عبيدة محل مرقد الغوث الرفاعي قدس سره، ويخطي ثلاث خطوات ويقول: اللهم إني أتوسل إليك..."[2].

وإذا ما أردت الدعاء لميت من الذين تهتم بشأنهم فاشرك الأولياء في دعائك "فمن آداب زائر القبور إذا أراد أن يدعو لصاحب قبر ـ أن يتوسل إليه تعالى بولي ميت"[3]. وإلا فلا أدب في الاتجاه إلى الله وحده دون أوليائه الموتى.

---

[1] ـ ص٤٣٣ قلادة الجواهر
[2] ـ ص٤٣٤ نفسه
[3] ـ ص١٧ ج٢ الإبريز

الموتى يغفرون الذنوب، فالسعي للقبور كما يقول الغزالي "المقصود منه: الزيارة والاستمداد من سؤال المغفرة وقضاء الحوائج من أرواح الأنبياء والأولياء"[١]، فأرواحهم تغفر الذنوب وتقضي الحاجات!

المريد الصوفي يأخذ صيغ الدعاء من أصحاب القبور الموتى، فأحدهم "زار قبر سيدي ابراهيم الدسوقي، فوقف عليه الشيخ سيدي ابراهيم الدسوقي نفعنا الله به وعلَّمه دعاء وهو هذا: بسم الله الخالق الأكبر. أحمى حميثا أطمى طميثا."[٢]. ولا غرابة طالما السريانية برأي الدباغ هي لغة الأرواح ولغة أهل الجنة. وقبر معروف الكرخي كما يقول الشعراني "مجاب الدعوة يستسقى بقبره. يزار ليلاً ونهاراً رضي الله عنه"[٣]، "فقبره ترياق مقدس، فمن كانت له حاجة فليأتِ إلى قبره وليدعُ فإنه يستجاب له إن شاء"[٤]، يستشفى بقبره. يقول البغداديون عنه قبر معروف ترياق مجرب"[٥]، "قبره ببغداد ظاهر، يستشفى به، ويتبرك بزيارته. قبر معروف الترياق المجرَّب"[٦]، "ما قصده مهموم إلا فرَّج الله همه"[٧]، والشيخ حياة الحراني أيضاً "أحد الأربعة الذين يتصرفون في

[١] - ص١٢١ المظنون به على غير أهله
[٢] - ص٣٤١ ج١ الإبريز
[٣] - ص٧٢ ج١ الطبقات الكبرى
[٤] - ص٣٦٠ الصلة بين التصوف والتشيع
[٥] - ص٩ الرسالة القشيرية
[٦] - ص٨٥ طبقات الصوفي
[٧] - ص٤٣٧ قلادة الجواهر

قبورهم بأرض العراق، وكان أهل حران يستسقون به فيسقون"[1]، والشيخ جاكير "قبره ظاهر يزار، وعمَّر الناس عنده قرية يطلبون البركة بذلك"[2]، وصاحب الحلية يقول عن قبر أبي يزيد البسطامي: إن أهالي بسطام "إذا أجدبوا استسقوا به فسقوا"[3]، "ومن الأمور المشهورة أنه لما دفن – أبو الحسن الشاذلي بحميثرا – وغُسل من مائها تكثر الماء بعد ذلك وعذب. ولم يكن قبل ذلك كذلك"[4]، والشيخ "ابن أغماث القيرواني، كان أهل أغماث يستشفون بتراب قبره، وقبره يكلم الناس ويرد عليهم"[5]، أما قبر الشيخ قاسم أبو عسرية فقد اختص بعلاج وجع البطن"[6].

الشعراني على ذمته يشهد محادثة بين الشناوي الحي وأحمد البدوي الميت "وسيدي أحمد يجيبه"[7]، "والسيد أحمد الرفاعي. يتكلم من قبره: كلمه أحدهم فظهر صوت من قبر السيد أحمد الرفاعي يقول: وعليك السلام"[8]، وليس هذا فحسب فالغزالي يرسل القصائد من قبره، فعندما هرب الشيخ قاسم بن صبيح من الحاكم الذي طلبه "إلى سيدي الغزالي بترغة جلس عند ضريحه بلسان حاله، فمد له من القبر بعود الريحان

[1] - ص١٥٣ ج١ الطبقات الكبرى
[2] - ص١٥٠ ج١ نفسه
[3] - ص٢١٥ مرآة الزمان
[4] - ص٧٧ لطائف المنن
[5] - ص١٩٣ العقلية الصوفي ونفسانية التصوف
[6] - ص١٣٣ ج٢ الإبريز
[7] - ص١٣٣ ج٢ الطبقات الكبرى
[8] - ص١٩٤ العقلية الصوفية ونفسانية التصوف

كاغداً مكتوباً لم يجف مداده هذان البيتان."[1]، وماذا عن رابعة العدوية التي شك الفقهاء بعقيدتها؟ فقد زار محمد بن أسلم الطوسي ونعمى الطرطوسي قبر رابعة فقالا: يا رابعة! لقد افتخرتِ بأنك لن تحني رأسك أمام هذه الدنيا ولا الآخرة، فأين أنتِ الآن! فصاح صوت من قبرها يقول: حبذا ما حدث لي! ما فعلت هو ما كان علي أن أفعله، والطريق الذي اكتشفته هو السبيل السوي"[2].

للقبر الصوفي حرمة عظيمة حتى عند الخضر عليه السلام، فعند القبور يعطي الأوراد والتعاليم للأولياء والدباغ يقول: "كنت أبيت كل ليلة جمعة في ضريح الولي الصالح سيدي علي بن حرزهم، وكنت أقرأ البردة مع من يبيت معه، حتى نختمها كل ليلة جمعة، فلما كان ذات ليلة. خرجتُ من الروضة فوجدت رجلاً جالساً تحت السدرة. فجعل يكلمني ويكاشفني بأمور في باطني، فعلمت أنه من الأولياء. فقلت يا سيدي اعطني الوِرد ولقني الذكر. فجعلت ألح عليه"[3]، وبعد أن أعطاه الورد والذكر اللذان هما بمثابة خاتم سليمان، أخبره قيِّم الروضة عمر بن محمد الهواري بأن الرجل الذي أعطاه الورد هو الخضر الذي يأتي دائماً لحضور الذكر بالبردة.

---

[1] - ص١٣٨ ج٢ إيقاظ الهمم

[2] - ص١٦٠ – ١٦١ رابعة العدوية

[3] - ص٥٢ ج١ الإبريز

بقبور الأولياء قضاء الحوائج فالتجئ إليها أيها الإنسان، ولو في أتفه أغراضك، وها هو على سبيل المثال الشيخ عبد الله البلتاجي الميت "زاره سيدي يوسف العجمي مرة، فضاعت حمارة الشيخ يوسف، فقال له وهو في القبر: يا عبد الله رد لي حمارتي وإلا لم أعد أزورك، فطلع الشيخ عبد الله من القبر وأتاه بالحمارة من البرية، وقد جعل برذعتها على رأسه"[1].

ومن اجترأ على حرمة المقابر يعاقب، فإياك والظن بأن الصوفي قد انفصل بموته عن الفعل "وحُكي أن شخصاً أراد أن يفعل فاحشة في أمرد في مقبرة الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه، فصاح الشيخ من داخل القبر: أما تستحي من الله يا فقير"[2]. فمسكين هذا الصوفي الذي أراد الفاحشة في الأمرد، فقد ظن أن مقابر الأولياء يمكن استغلالها للزنا! والشيخ عبد العال الشهير بكراماته الكثيرة "من كراماته في سنة ٩٤٧ هـ، أن شخصاً راود امرأة عن نفسها في قبته فسمَّره ويبَّسَ أعضاءه، فكان يصيح حتى كاد أن يموت، فأخبروني به فمضيت إلى قبره وأمرت بعض الفقراء أن يسأل سيدي عبد العال في الصفح عنه، فقرأ الفاتحة ودعا فانتشرت أعضاؤه وتاب إلى الله من ذلك اليوم وصار من الفقراء الملاح"[3] بعد أن

---

[1] - ص٤٣ قلادة الجواهر
[2] - ص١٦٢ ج١ الطبقات الكبرى
[3] - ص٤٠٣ قلادة الجواهر

كان فقيراً أو صوفياً سيئاً. ولا أظن الدكتور زكي مبارك مخطئاً بقوله: إن الموالد "يكثر فيها الرجس والدنس والفتون"[١].

أصحاب القبور من موتى الصوفية يرتِّبون حفلات زفاف أحبابهم ومريديهم، فالشعراني يقول: "ولما دخلت بزوجتي فاطمة أم عبد الرحمن وهي بكر مكثت خمسة شهور لم أقرب منها، فجاءني وأخذني – يقصد البدوي – وهي معي وفرش لي فرشاً فوق ركن القبة التي على يسار الداخل وطبخ لي الحلوى ودعا الأحياء والأموات إليه، وقال: أزل بكارتها هنا، فكان الأمر تلك الليلة"[٢].

وهل بوسع الصوفي إلا تصديق أمثال هذه الحكايات، فالميت يطبخ الحلوى ويدعو الأحياء والأموات إلى الوليمة إلى حفلة الزفاف التي قام برعايتها! وما أعظم العلاقة بين الشعراني الحي والبدوي الميت، فهي وطيدة، فعندما تأخر الشعراني ذات مرة عن المجيء للمولد الذي يقام على شرف البدوي، كان البدوي وهو في قبره قلقاً لتأخر الشعراني عن زيارته "حتى كان يكشف الستر عن الضريح ويقول: ابطأ عبد الوهاب ما جاء؟"[٣]

---

[١] - ص٢٩٢ ج٢ التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق
[٢] - ص١٨٦ ج١ الطبقات الكبرى
[٣] - ص١٨٦ نفسه

ولما اعتذر الشعراني عن حضور المولد، خاطبه البدوي الميت قائلاً: "لا بد من الترسيم عليك، فرسم سبعين عظيمين أسودين كالأفيال وقال: لا تفارقاه حتى تحضرا به"[1]، ويقول الشعراني: "وسبب حضوري مولده كل سنة أن شيخي العارف بالله تعالى محمد الشناوي- كان أخذ عليَّ العهد في القبة تجاه وجه سيدي – البدوي – رضي الله عنه وسلمني إليه بيده فخرجت اليد الشريفة من الضريح، وقبضت على يدي، وقال: سيدي يكون خاطرك عليه واجعله تحت نظرك. فسمعت سيدي أحمد رضي الله عنه من القبر يقول: نعم"[2]!

الصوفي يغار على زوجته من الزواج بعد موته وإلا فالويل وسوء المصير، فالشيخ شمس الدين الحنفي "لما دنت وفاته قال لزوجته: لا تتزوجي بعدي، فمن تزوج بك خرَّبت دياره وأنا لا أحب أن تكوني سبباً لخراب دار أحد رضي الله عنه"[3]. فبكراماته يهددها إن ارتكبت ما أحلَّه الله لها، وهل من غير الله هذه الخوارق إن حدثت؟ ولولا حدوث أمثال تلك الخوارق بالفعل ما عُبد وثن ولا صنم ولا الأسلاف في مقابرهم.

ولكن إن كانت قبور الأولياء المتصوفة تفعل هذه الأفاعيل العظيمة اعتباراً من إنزال المطر إلى شفاء المرضى، إلى تفريج الهموم إلى قضاء

---

[1] - ص١٨٦ نفسه
[2] - ص١٨٦ نفسه
[3] - ص١٠١ ج٢ الطبقات الكبرى

الحوائج بكافة أشكالها. فهل ذلك كله بلا ثمن؟ آه يا مسكين! فالنذور كما قلنا من قبل من جملة الموارد الرئيسية للاقتصاد الصوفي، فعليك بالنذور إن أردت تسخير الأولياء في قضاء حوائجك. وأظن أن التلميح يكفيك لتكون سخياً، واعلم بأن هناك "قبر يُعرف بقبر النذور"[١]، وقد "شُهر بقبر النذور لأنه ما يكاد ينذر له نذر إلا صح وبلغ الناذر ما يريد ولزمه الوفاء بالنذر"[٢]، وقبر الشيخ بقاء بن بطو أيضاً "قُصد بالزيارات والنذورات"[٣]، فالنذور لا بد منها إن أردتم قضاء الحوائج، أم لا علم لكم بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أمرنا بها. وها هو الشيخ محمد أبو المواهب الشاذلي يقول: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إذا كان لك حاجة وأردت قضاءها فانذر لنفيسة الطاهرة ولو فلساً فإن حاجتك تُقضى"[٤].

مولد البدوي وحده في مصر "يحضره فيما يقال مليونا شخص"[٥]، ما عدا الأولياء الموتى والأنبياء، فشيخ الشعراني محمد السروي "تخلف سنة عن الحضور – حضور مولد البدوي – فعاتبه سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه، وقال: موضع يحضر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم

[١] - ص٤٣٧ قلادة الجواهر
[٢] - ص٤٣٨ نفسه
[٣] - ص١٤٧ ج١ الطبقات الكبرى
[٤] - ص٧٤ ج٢ نفسه
[٥] - ص٨٦ التصوف في الإسلام

والأنبياء عليه الصلاة معه والأولياء وأصحابهم رضي الله عنهم، ما تحضره؟"[1]، وليس هذا فحسب، وكذلك يحضره كما يقول عبد الباقي سرور "ضاربوا الرمل وصانعوا المعجزات"[2] بكافة أصنافهم، حتى أن الشاعر حافظ ابراهيم راح يحسد أصحاب القبور لما هم فيه من ترف ونعيم، قائلاً:

"أحياؤنا لا يُرزقون بدرهم   وبألف ألف تُرزق الأموات"[3]

وإذا كانت الأضرحة بهذا الثراء العظيم فما الذي يمنع المتصوفة من "استباحة تذهيب القباب"[4]، وقد استباحوها بالفعل، وهل من الغريب أن تكون الحضرة للذكر معقودة عند الأضرحة، "فكل ضريح يُتبع غالباً بما يسمى "الحضرة" وهي حفلة اسبوعية تقام للذكر والغناء وقراءة الأوراد"[5]، ولا تخلو من العطايا والهبات التي يبذلها السذج من أمة محمد صلى الله عليه وسلم. ومن أجل ذلك تعددت الأضرحة للولي الواحد، وغالباً ما نجد لمشاهير الصوفية أكثر من "مقام"-. "فالبسطامي مثلاً" رغم قبره الشهير ببسطام نجد قبر آخر في مسجد كبير يحمل اسمه بإحدى

---

[1] - ص١٨٦ ج١ الطبقات الكبرى
[2] - ص١١٩ العقلية الصوفية ونفسانية التصوف
[3] - ص١٢٠ نفسه
[4] - ص٢٩٠ ج١ التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق. هامش
[5] - ص٢٩١ ج١ نفسه

بلاد صعيد مصر"[1]. وما أكثر القبور التي سميت باسم الشيخ ابراهيم بن أدهم، في بغداد، ودمشق، وجبلة، وصور"[2]. فضريح واحد يدر على سدنته من الثروات ما لا يدره معمل على أصحابه! وما أهون زعم المتصوفة لهذا الضريح أو ذاك، فالشعراني الباحث عن قبر الشيخ أبو الفضل الأحمدي يقول: "فلما حججت سنة سبع وأربعين مضيت إلى قبره فقلت له: اقسم عليك بالله إلا ما نطقت لي من القبر وعرفتني بقبرك فناداني: تعال، فإني ها هنا، فعرفت قبره بتعريفه لي رضي الله عنه"[3]. وبهذه المعرفة التي لا خطأ فيها كما يزعمون يتضح ارتباط الثروة بتعدد القبور، وإلا فلا وجود إلا لقبر واحد قطعاً أمام يقين الكشف.

بل والأضرحة التي لا جثة فيها على اليقين جعلوها صالحة لكل حاجة فإياك والمراهنة، وها هو قبر الحلاج "الخالي من رفاته أقيم له في بغداد كبعة للزائرين"[4]، ومن أجل حرمة القبور الخالية من الجثث يقول الدباغ بعد موته لمريده ابن المبارك: "وفي أي موضع تطلبني تجدني، حتى أنك لو قمت إلى سارية في المسجد وتوسلت بي إلى الله عز وجل فإني أكون معك حينئذ، ثم أشار إلى العالم كله، فقال: وأنا فيه بأجمعه، فحيثما طلبتي وجدتني، وإياك أن تظن أني أنا ربك عز وجل، فإن ربك

[1] - ص٢٢ الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي
[2] - ص٢٢٦ تاريخ التصوف الإسلامي
[3] - ص١٧٤ ج٢ الطبقات الكبرى
[4] - ص١٨ الحلاج شهيد التصوف الإسلامي

عز وجل غير محصور في العالم، وأنا محصور فيه"[1]، "فحضرة شيخنا – يقول ابن المبارك – هو العالم بأسره"[2]. ونحن عندها مع إلهين: إله في السماء وإله في الأرض!

وهل صدفة أن العثمانيون قد اهتموا ببناء قبور المتصوفة؟ وما الذي يجعل السلطان سليم مثلاً آمراً "ببناء مسجد باسم ابن عربي ومدرسة كبيرة على ضريحه بعد أن رتب الأوقاف العظيمة لها؟"[3]. علماً أن المسافة الزمنية بين الرجلين هي ٣٤٨ سنة!

وللحفاظ على قبور أولياء التصوف من شر الخصوم، زعم سدنتها أنها تفعل الأفاعيل بمن يقصدها بسوء، والشعراني مثلاً يقول: "وأخبرني أخي الشيخ الصالح الحاج أحمد الحلبي أنه كان له بيت يشرف على ضريح الشي محيي الدين، فجاء شخص من المنكرين بعد صلاة العشاء بنار يريد أن يحرق تابوت الشيخ فخسف به دون القبر بتسعة أذرع، فغاب في الأرض وأنا أنظر، ففقده أهله من تلك الليلة، فأخبرتهم بالقصة فجاؤوا وحفروا، فوجدوا رأسه، فكلما حفروا نزل وغار في الأرض إلى أن عجزوا وردموا عليه التراب"[4]، والشعراني أيضاً الذي نذر نفسه لتقديس القبور وعبادتها يتبرع لنا بقصص أخرى يقول فيها: "إن شخصاً أنكر

[1] - ص١٣٥ ج٢ الإبريز
[2] - ص١٣٦ نفسه
[3] - ص٩٥ ابن عربي حياته ومذهبه
[4] - ص١٨٨ ج١ الطبقات الكبرى

حضور مولد – البدوي – فسُلب الإيمان منه فلم يكن فيه شعرة تحن إلى دين الإسلام. فاستغاث بسيدي أحمد رضي الله عنه-. فرد عليه ثوب إيمانه-. والشيخ أبا الغيث بن كتيلة-. أنكر الموالد – فأطعمه سمكاً فدخلت حلقه شوكة تصلبت. فلم يقدروا على نزولها-. تسعة أشهر-. فبعد تسعة أشهر ذكَّره الله بالسبب، فقال: احملوني إلى قبة سيدي أحمد-. فخرجت الشوكة مغمسة دماً، فقال: تبت إلى الله يا سيدي أحمد، وذهب الوجع والورم من ساعته"[١].

---

[١] - ص١٨٧ ج١ نفسه

- القبور في نظر الإسلام:

القبور في نظر الصوفي ذات مهام كونية واجتماعية وتعليمية، وتقديسها عند القوم من شعائر الدين والإيمان، وأصحاب القبور أحياء، ناطقون ولهم من الأفعال ما قد يعجز عنه الأحياء، وخوارقهم غير خافية في أذهان كل المتصوفة، ولكن – كما يقول الدكتور زكي مبارك – "هل عرف الصوفية إقامة التماثيل؟ -. "نعم" ولكن كيف؟ -. عرفوها في الأضرحة والقباب"[١]، حتى أصبحت المساواة كاملة بين السادن والكاهن، ولكل قبر من قبور الأولياء سدنة وخدم، وأصبح "سلطانها على النفوس بعيد الجذور شديد الجور – على حد تعبير زيعور – مما يذكِّر بعبادة الموتى وتقديس الأتباع"[٢] أو الأسلاف.

أما البراهين التي اعتمدوا عليها لتقديس القبور فقد كانت جد واهية ولا قيمة لها من الناحية العقلية إن طلبنا موازين الصدق والكذب، ولا قيمة لها من الناحية الدينية، فالميت الذي انقطع عمله إلا من ثلاث، نرى أن الثلاث المذكورة لم تكن له إلا من عمله لما كان حياً، فليس للميت قدرة على غفران الذنوب ولا على الشفاء من الأمراض ولا على حل المشاكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ولا بإمكانه أن يعلم أحداً.

---

[١] - ص٢٨٩ ج١ التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق
[٢] - ص١٢٠ الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم

إدراك الخوارق موجود اعتباراً من سماع الأصوات نهاية بإحداث الأفعال! هذا صحيح، ولكن للأوثان أيضاً خوارق وأحاديث وأصوات أدركها الذين آمنوا بها. أما الوسطاء الروحيون فيفسرون هذه الظواهر بانتسابها إلى أرواح الموتى أو الجن والشياطين بالمصطلح الديني التي قد تتجسد أمام الإدراك أو قد يكون لها هذا الفعل والقول أو ذاك، أما مسألة التمييز بين الأرواح والشياطين فهي مسألة تقع على عاتق الوسطاء الروحيون وأولياء التصوف لا تخص غيرهما.

ـ خاتمة:

الأخذ بالأسباب حسب الصوفي من الشرك فلا فاعل إلا الله، فلا تدبير، ولا سعي للعلم، ولا ادخار، ولا علاج للأمراض، ولا بناء للمشافي والمدارس، والجيوش، ولا قيام للحرف والمهن. وبالإجمال لا عمل ولا شيء أفضل من الذل والخمول والتسول، وهكذا يكون الإنسان مع الدرجة العليا من التوحيد.

الصوفي اتكل على الله لتأمين أرزاقه، ومن أجل أن يسلم له التوحيد، اتبع السبل أو المهن الاقتصادية التالية:

* الجلوس في الخلوة وانتظار الفتوح أو المتصدقين.

* التسول من كل الخلق ولا فرق في ذلك بين مؤمن وغير مؤمن، أو بين سلطان وعوام.

* بيع الجنة.

* النذور.

* إقامة الموالد وحفلات السماع في الأفراح وقراءة القرآن المأجورة على القبور.

* الديون التي غالباً لا يسددها.

* الزكاة ومحاولته الهيمنة على مصارفها.

* الوصايا والوقف.

* سلب المريدين أملاكهم.

* استخدام القبور التي قدسها للشفاء وقضاء الحاجات المأجورة.

ولتبرير هذه السبل دينياً واجتماعياً وللمحافظة على بقائها قام بما يلي:

* لإباحة التسول ساوى بين الدعاء والتسول، وقال بالأحاديث الموضوعة، وحرَّف بالتأويل آيات القرآن، وزعم أن الرسول استحسنه، بل وجعله من سنن الأنبياء، كما جعله الوسيلة الأهم لتحرير الأسماء الإلهية أو أرواحها من الأسر.

* ومن أجل سلب المريدين من أملاكهم، اشترط الوصول إلى الله والخوارق والمعرفة، بالإنفاق على المشايخ، وزعم الأبوة الروحية التي بها الهيمنة على كل ما يملكه المريد، ومن أجل هذا الغرض أيضاً ساوى بين رضى الله ورضى الشيخ وزعم الخوارق التي بها معرفة ما يملكه المريد.

* ومن أجل حث الخلق لزيارة قبور أولياء التصوف، جعلها مقدسة وذات خوارق وكرامات وأفعالاً عجيبة إلى حد أن ساوى بين الموتى

والأحياء في الأفعال أو التكاليف والخوارق، حتى كان له أخيراً الزعم بعقاب المنكرين لتقديس القبور.

* ومن أجل رواج بيعه للجنة وقصورها بالدراهم والعقارات، زعم قدرته على غفران الذنوب وحث الناس على شرائها، كما زعم شفاعته المطلقة التي لا حدود لها بكفر وإيمان.

* ومن أجل ألا يكون محتقراً من الخلق، وحفاظاً على ماء وجهه نراه وقد استخدم الكرامة، فبالكرامة له تحصيل القوت والنقود والكنوز، فهو في غنى عن الخلق وإنما من أجلهم يتسول، ويده هي العليا، ومن أجل أن تكون يده هي العليا أيضاً طلب من المتصدقين وضع نقودهم على أكفهم وهي مبسوطة، لتأخذها يده التي ستصبح هي العليا، ومن أجل ألا يكون الولي الصوفي ذليلاً أمام العوام ساوى بين الله والعوام بل وساوى بين سؤالهم وسؤال الله نفسه، فالصوفي ليس عن حاجة وفاقة يتسول، ولكنها سنة الله أن يحيى أولياءه على كد الآخرين، فهو سبحانه الذي سلط الشفقة على الخلق حتى ينفقوا عليهم رغماً عنهم، وهو سبحانه الذي ربط بين التسول وظهور حكمته، وتلك هي سنته مع أحبابه فله الأمر من قبل ومن بعد.

ومن هذا كله نرى أن سمات الصوفي الاقتصادية تتميز بما يلي:

* الصوفي كسول يكره العمل، ولو لتأمين قوته وقوت عياله.

* الصوفي لعوب يستغل الدين وإيمان البسطاء والسذج لجعلهم كالبقرة الحلوب.

* الصوفي من أجل رزقه لا يتورع عن وضع الأحاديث وتحريف القرآن.

* الصوفي بمنهجه هذا، يكرس السفالة ليجعلها من جملة الفضائل والقيم الاجتماعية.

* الصوفي حقود وناكر للجميل.

* الصوفي بفضائله الدونية يسعى لخراب المجتمع وتجريده من العقل وأسباب القوة والعلم.

* الصوفي مشعوذ يستخدم خوارقه لابتزاز الآخرين بما فيهم مريديه أو تلامذته.

* الصوفي في توكله متكل على الآخرين لا على الله عز وجل.

- المراجع:

1 – **القرآن الكريم.**

2 – **التعرف لمذهب أهل التصوف:** أبو بكر محمد الكلابذي ١٩٨٠م.

3 – **الفتوحات المكية:** محيي الدين ابن عربي، مكتبة الثقافة.

4 – **الفتح الرباني:** عبد القادر الجيلاني، تحقيق: محمد البواب، دار الألباب.

5 – **التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق:** د. زكي مبارك، دار الجيل.

6 – **الطبقات الكبرى:** عبد الوهاب الشعراني، دار الفكر.

7 – **الصوفية في نظر الإسلام:** سميح عاطف الزين، طـ٣ ١٩٨٥.

8 – **الحلاج شهيد التصوف الإسلامي:** طه سرور، طـ٢.

9 – **النور من كلمات أبي طيفور:** أبو يزيد البسطامي، مع شطحات الصوفية.

10 – **الفتح الإلهي:** السهروردي، هامش إحياء علوم الدين.

11 – **الغنية:** عبد القادر الجيلاني، دار الألباب.

12 – **الأنوار القدسية:** الشعراني، هامش الطبقات الكبرى، المكتبة الشعبية.

13 – **التصوف بين الحق والخلق:** محمد فهر شقفة، ط٢ ١٩٧٠م.

14 - **الإبريز:** أحمد المبارك، تحقيق: محمد الشماع ج١ ط١ ١٩٨٤م. ج٢ ط١ ١٩٨٦م.

15 – **الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم:** د. علي زيعور، ط١ ١٩٧٧م.

16 – **الزهد:** الإمام أحمد بن حنبل، دار الكتب العلمية ط١ ١٩٨٣م.

17 – **التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس:** عبد القادر عطا، ط١ ١٩٨٧م.

18 – **العقلية الصوفية ونفسانية التصوف:** د. علي زيعور ط١ ١٩٧٩م.

19 – **الصوفية في نظر الإسلام:** سميح عاطف الزين.

20 – **الروحية عند محيي الدين ابن عربي:** د. علي عبد الجليل راضي.

21 – **المظنون به على غير أهله:** الغزالي، تقديم رياض العبد الله، دار الحكمة ١٩٨٦م.

22 – **السحر بين الحقيقة والخيال:** محمد زهير الحريري، ط١ ١٩٨٥ م.

23 – **الإنسان وقواه الخفية:** كولن ولسن، ترجمة: سامي خشبة، دار الآداب ط١ ١٩٧٧م.

24 – **الصلة بين التصوف والتشيع:** د. كامل مصطفى الشيبي، ط٢.

25 – **التصوف في الإسلام:** د. عمر فروخ، دار الكتاب العربي ١٩٨١م.

26 – **الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي:** يوسف زيدان ١٩٨٨م.

27 – **مدخل إلى التصوف الإسلامي:** د. أبو الوفا التفتازاني، ط٢ ١٩٧٦م.

28 – **من التراث الصوفي:** د. كمال جعفر، ط١ ١٩٧٤م.

29 – **مواقع النجوم:** محيي الدين ابن عربي، مطبعة محمد صبح ١٩٦٥م.

30 – **مدارج السالكين:** ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد الفقي ط٤ ١٩٧٢م.

31 – **مرآة الزمان:**

32 – **روضة الطالبين:** الغزالي، مكتبة الجندي، ج٤ القصور العوالي.

33 – **روح القدس في محاسبة النفس:** ابن عربي، مكتبة الوكيل.

34 – **إحياء علوم الدين:** الغزالي.

35 – **إيقاظ الهمم:** أحمد بن عجيبة، ط١ ١٩٨٦م.

36 – **ابن عربي حياته ومذهبه:** آثين بلاثيوس، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي ١٩٧٩م.

37 – **شروح رسالة الشيخ أرسلان:** عبد الغني النابلسي، مطبعة العلم، دمشق، تحقيق عزت حصرية، ١٩٦٩م.

38 – **شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية:** د. عبد الرحمن بدوي ط٢ ١٩٧٦م.

39 – **سير الأولياء:** صفي الدين الحسني، تحقيق مأمون ياسين وعفت حمزة.

40 – **سر العالمين:** الغزالي، دار الشباب.

41 – **تلبيس إبليس:** عبد الرحمن ابن الجوزي ط٢ ١٣٦٨ هـ.

42 – **تاريخ التصوف الإسلامي:** د. عبد الرحمن بدوي، ط١ ١٩٧٥م.

43 – **قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة:** أحمد ابن تيمية، ط١ ١٣٧٣هـ.

44 – **قلادة الجواهر:** محمد أبو الهدا الصيادي.

45 – **طبقات الصوفية:** عبد الرحمن السلمي، تحقيق نور الدين شريبة، ط٣ ١٩٨٦م.

46 – **في التصوف الإسلامي وتاريخه:** رينولد. أ. نيكولسون، ترجمة د. أبو العلا عفيفي.

47 – **عوارف المعارف:** السهروردي هامش إحياء علوم الدين.

48 – **دراسات في التصوف الإسلامي:** د. محمد جلال شرف، دار النهضة المصرية ١٩٨٤م.

49 – **لطائف المنن:** تاج الدين بن عطاء الله السكندري، مكتبة القاهرة ١٩٧٩م.

- الفهرس: